حوحو

أحمد رضا

مع حمار الحكيم

مكتبة هنا كتبي

موقع مكتبة حصريات هيا كتبي

لزيارة الموقع

اضغط هنا

الاهـــداء

الى الذين أعجبوا بحمار الحكيم
وشجعوه على المضي في تأدية رسالته ،
اقدم هذه النبذة من إنتاجه .

قسنطينة في ١ — ٣ — ٥٣

احمد رضا حوحو

إلى القــراء ......

اقــدم اليك ايــها القاري الكريم هذه الصفحات الصريحة على حد تعبيري الخاطئ، او المصرح بها على حد تعبير النحاة الصائب، فان اثارت اعجابك فذلك ما كنت ابغي، وان اثارت سخطك فذلك ما كنت انتظر، وان لم تــفعل هذا ولا ذاك، فواحسرتــاه على هذه الجهود الضائعة ولا حول ولا قوة الا بالله.

احمد رضا حوحو

رقم النشر 82/1338
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر 1982

المقدّمة

بقلم

الاستاذ عبد الرحمن شيبان

يمتاز ادب الاستاذ احمد رضا حوحو بطابع الخفة و الصدق و الانتقاد ؛ فانك لا تكاد تقرأ له فصلا من فصوله ، او قصة من اقاصيصه ، او تشاهد له مسرحية من مسرحياته حتى يفاجئك بهذا الثالوث الجميل الحبيب .. ولا تظن ان كاتبنا يتكلف هذه الخصائص تكلفا ، او يسعى اليها سعيا ، بل انها لتنبعث من نفسه الخفيفة الصادقة الناقدة انبعاثا ؛ فهو خفيف في كلامه ، خفيف في نكته ، خفيف في حركته وسكونه . وهو يعالج ما يعالج من الشؤون بكل صدق ، وينظر الى كل ما تقع عليه عينه بروح نقدية تنفذ الى صميم الاشياء ، وبتعبير واحد جامع ، فان رضا حوحو في ادبه هو نفس رضا حوحو في حياته من غير ما تعديل او روتوش !.

عرفت الاستاذ حوحو منذ سنة ١٩٤٨ ، فتم الاتصال بيننا كاننا نشانا في اسرة واحدة ، او تخرجنا من معهد واحد ، وكنا بحكم هذه العشرة الصافية اسسنا بمعية زميلين آخرين ، جمعية حرة متمردة على الاوضاع دعوناها « اخوان الصفاء » واستمرت هذه الجمعية تواصل اعمالها واجتماعاتها بدار اخينا حوحو ، بروح انشائية وثابة كان من آثارها هذا الكتاب الذي يقدم نفسه بنفسه للقراء . ففي

ليلة من تلك الليالي الزاخرة ، قدمت للاخ حوحو « حماري قال لي » للاستاذ توفيق الحكيم (وكانت الحرب قد حرمتنا زمنا طويلا من بريد الشرق) فالتهمه في سهرة واحدة . واعاده الي في الغد ، وهو معجب بموضوعه ، ماخوذ باسلوبه ، فقلت — وكنا قد انقطعنا عن النشاط الكتابي في البصائر — لا تدع هذه الجذوة التي اوقدها الاديب الحكيم في نفسك ، تخمد دون ان تقوم بعمل ما !

فقال : ماذا تريدني ان اعمل ؟.

قلت : تجند قلمك لتوجيه هذا الشعب الذي كثر مستغلوه وقل خادموه ، على نحو ما فعل توفيق الحكيم بمصر .. وذلك ماكان ، فما اصبح قراء البصائر حتى راوا « حمار الحكيم » يخترق الحدود المصرية فيمسي في القطر الجزائري يجوب انحاءه ، ناشرا آراءه الحرة الصريحة (بنفس الشجاعة و نفس اللباقة) فكانت هذه الفصول الادبية والاجتماعية ، التي استعذبها القراء فطلبوا منها المزيد لما عالجت من من موضوعات مبتكرة ، ذات الوان مختلفة ، بتفكير طليق ، واسلوب خفيف طريف ..

ان مجتمعنا قد تحرر الى حد بعيد من الخرافات التي نسجتها الجهالة على عقيدته الدينية ، ولكنه لا يزال يرسف في اغلال عقائد اجتماعية باطلة تعوقه عن التطور والتقدم ؛ فهو لا يزال خرافيا في السياسة والاقتصاد ،

خرافيا فى التربية والتعليم والفنون، خرافيا فى النظر الى المرأة والزواج والاسرة، خرافيا في نظره الى الحياة كمجتمع متمدن يعيش في القرن العشرين.

ومن هنا كانت حاجته الى المصلح الاجتماعي ماسة وضرورية، ومن هذا المصلح ياترى ؟.

اعتقد ان علماءنا الاحرار اخذوا — ولا يزالون ياخذون — بيد الشعب فى كثير من الميادين، كميدان نشر الفضيلة وحب الخير والتعاون وما الى هذا من القواعد الخلقية اللازمة لبناء اي مجتمع قوي سليم، ولكنهم — نظرا لما يحيط بمراكزهم من اعتبارات مختلفة ايسرها الوقار والتحفظ — فهم لا يستطيعون التحليق في جميع الاجواء، ولذلك تراهم من قديم العصور يسايرون الركب ولا يقودونه. والجماعة البشرية لا تنقاد الا للفارس السباق !

فان المصلح المرجو لمعالجة ادواء مجتمعنا اذن، انما هو الاديب الموفق الذى وصفه الاستاذ حوحو فى «فصل الادباء والفنانون» بقوله: «الاديب هو الذى يستطيع ان يصل الى اعماق النفوس فيحللها، والى اعماق الاشياء فيصورها؛ وهو الذى يجعل من ادبه لغة روحية يخاطب بها ارواح الغير ويعبر بها تعبيرا صادقا عن مشاعره وتصوراته دون ان يحسب حسابا لسخط هذا أو رضا ذاك.»

ولأجل هذا ترانى انظر الى هذا الكتاب الذى يقدمه «حمار الحكيم» الى القراء، فى هذا الثوب القشيب، نظرة تفاؤل وتقدير؛ فهو لعمري نواة صالحة لغرس الروح النقدية فى صفوفنا، هذه الروح الجموح التى تسمى الاشياء باسمائها؛ وتكشف عن الحقائق ما يغطيها من الثياب البالية والاغشية الموهة، حتى تبدو عارية جلية يلمسها الاعمى ويراها الاصم !.

فما عليك ياصاحب «حمار الحكيم» الا ان تواصل جهادك الادبي بهذه العزيمة الجريئة، فتعمل ما وسعك العمل على طبع اقاصيصك ومسرحياتك الكثيرة التي شاهدها الجمهور الجزائرى فهام بها هياما. وثق انك اذ تسير فى هذا السبيل فانك تنير الطريق لابناء امتك، وتعينهم على حل مشاكلهم الفردية، ومعالجة امراضهم الاجتماعية. وخير الادب ما كان من الشعب والى الشعب، وثق، من جهة اخرى، انك بجهادك هذا تعمل على تعمير المكتبة الجزائرية الفارغة، وتضع لبنة قوية فى صرح ادبنا الجزائري الحديث.

عبد الرحمن شيبان

مع حمار الحكيم

أنتهيت من مطالعة لذيذة لكتاب « حماري قال لي » لتوفيق الحكيم ؛ واستلقيت في مقعد مريح بعض الشيء ، مريح بالنسبة الي ، انا الذي قضيت ثلاثين حجة من حياتي بين مقاعد الدراسة ومقاعد العمل ، وكلها لا تمت الى الراحة واللين بصلة قريبة ولا بعيدة .

ثم استغرقت في تفكير عميق محاولا هضم ما قرأت ، وما هي الا دقائق حتى اغفت عيناي والقى على الكرى رداه أسودا خفيفا ، ورأيت فيما يرى النائم اليقظ حمارا صغيرا لطيفا تبدو عليه علامات الذكاء والفطنة ، يطل علي برأسه من وراء مقعدي ، فعرفته على الفور دون اشكال او عناء فقد كان حمار توفيق الحكيم برأسه ورجله .

فقلت له : — أنت حمار الحكيم؟... فقد عرفتك ! فافترت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة عريضة وقال :

— عرفتني هكذا بسهولة دون اشكال ؟

قلت : — نعم فان معالمك لم تخف علي ؛

قال : — فانا مشهور اذن في بلادكم ؟

قلت : — دون شك ... ومن يجهل حمارا فيلسوفا مثل حضرتك .

حرك الحمار الفيلسوف أذنيه الطويلتين ثم قال :

— انك لم تخطئني ، فقد لاحظت كثيرا من الحمير يتمتعون بشهرة كبيرة في هذه البلاد .

قلت : — وما سبب هذه الزيارة يا ترى ؟

قال : — استدعيت خصيصا لأغني في محطة الاذاعة الجزائرية .

قلت : — تغني في الاذاعة ؟ . يا للعجب !

قال : — وما وجه العجب ؟ فان صوتي جميل . فهل تريد ان اسمعك شيئا ، مجانا دون مقابل ! .

قلت : — لا .. لا .. لا عدمت برك واحسانك ؛ ولكن اليس صوتك هو الذي ذكره الله في القرآن ؟ . فكشر الحمار المطرب عن اسنانه ضاحكا ثم قال :

— سوف يتبين لك أن صوتي أحسن من كثير من الاصوات التي أعتدت سماعها كل يوم ! ثم اردف قائلا :

— سوف لا تخسر شيئا ؛ فان لم يعجبك صوتي وفنني فما عليك الا أن تدير لولب الجهاز بعنف كما اعتدت ان تفعل .

وأردت أن اغير مجرى الحديث خوفا من ان يذهب به الحماس الى رفع عقيرته بالغناء فقلت له :

— كيف فارقت صاحبك ؟

قال: — من تعني ؟. توفيق الحكيم ؟ فقد ضقت ذرعا بهذا الرجل؛ لانني كلما وضعت برنامجا اصلاحيا الا وقام بافساده علي .

قلت : — رغم سداد آرائك فانك لن تجد من يهضمها غيره

— وهل حقيقة أعجبتك آرائي ؟

— نعم وجدتها سديدة .

— هل تريد ان أوحي اليك بشيء من فلسفتي ؟

قلت له : — أنت حمار مصري ؛ وافكارك مصرية جريئة ؛ والحال عندنا غير الحال عندكم واني أخشى ألا تقوى معدتنا المكدودة على هضمها .

قال الحمار الفيلسوف :

— لا .. لا .. انك تبالغ ؛ وما عليك الا ان تشرح لي أية مشكلة من مشاكلكم وسأفيدك برأيي السديد فيها .

لمت : — ان مشاكلنا كثيرة وحياتنا معقدة ، ولكن لا باس ؛ اي موضوع تريد ان نبحث ؟

— اقترح أنت الموضوع ،

لا ... اقترح انت ،

قال بخبث : — أنك تحترس كثيرا ... فلنتكلم في السياسة ،

قلت : — دعني من السياسة ، ايها الحمار السياسي ، انها لم تنضج بعد في بلادنا ولا زالت تعتمد على المصالح الشخصية والحزازات الفرديه ، اكثر من اعتمادها على المبادى والافكار والمصلحة العامة ؛ وانا لا اريد ان الطخ نفسي باوحالها

حك الحمار قذاله برجله وقال :

— هل تريد ان نطرق موضوع المراة ؟

— كن مرتاحا من هذه الناحية ، فلا وجود للمرأة في بلادنا .

— عجبا اتعيشون بدون نساء ! وكيف تتناسلون ؟

قلت : — لدينا آلات للنسل نحتفظ بها في بيوتنا

قال : — هذه مشكلة عويصة دعنا منها ، فلنبحث في الفقه فان لي آراء جديدة فيه لا تخلو من فائدة .

— ارى ان تحتفظ بها لتحدث بها فقهاءنا علهم يستفيدون منك شيئا جديدا .

— لنتكلم اذن في الدين .

— دين من ؟

— الدين الاسلامي.

— اعلم ذلك ، لكن دين الحكومة ام دين الشعب ، الدين الرسمي ام الدين الحر ؟!

— عجبا .. وهل لكم اديان عديدة ؟

— دينان فقط .. دين رسمي تشرف عليه الحكومة و يحرسه رجالها من موظفي المساجد والطرق ، ودين حر يعتقده الشعب و ينتزعه رجال الاصلاح فيه .

قال : — والتعليم ؟

قلت : — هناك التعليم الرسمى و هو مبني على قاعدة فلسفية عميقة و غامضة فى نفس الوقت ، وهي تعلم لتجهل ...

قال : — عجبا ! .. يتعلم ما ذا ؟ . و يجهل ماذا ؟ . فاني لا أكاد افهم شيئا !

قلت متضجرا : — و انى لك ان تفهم فلسفتنا العميقة .

ثم اردفت قائلا : — واما التعليم الحر فان له لجنة عليا ، تستطيع ان تتصل بها لتقدم لها آراءك ومقترحاتك .

قال : — وهل يروقك حديث الادب والفنون ؟

— لا ادب لدينا و لا فنون ولا صحافة ولا هم يحزنون

فضحك بملء فيه وقال :

— انك لرجل متشائم ، لكن لا بد من طرق اي موضوع ، فلنتكلم في الاقتصاد

قلت : — اما رجال المال والتجارة فانهم لا يضيعون اوقاتهم

المادية الثمينة في قراءة مهاتراتنا ، واما القراء فانهم لا يملكون ما يشترون بـه ما يريدون مطالعته ، وهم في غنى عن خبرتك الاقتصادية .

قال : — لقد اعياني البحث ! اقترح انت موضوعا شيقا نتباحث فيه مليا .

قلت : — اختر بين موضوعين : الفقر والجهل

قال مشمئزا : — ان فلسفة الحمير فلسفة راقية لا تتنازل الى هذه الاشياء الحقيرة ثم القى نظرة خاطفة على ساعته الرجلية ! و صاح :

— لقد حان وقتى ولم نصل الى نتيجة ، فاستودعك الله والى اللقاء .

واستيقظت من غفوتي وبحركة آلية فتحت جهاز الراديو ، واذا بصوت مزعج ينطلق منه ، وسمعت ابنى يقهقه على مقربة منى وهو يردد !

— اما حمار عجيب !

قلت : — من ؟ حمار الحكيم .. هل هو الذى يغني ؟ .

قال متعجبا : حمار يغني ؟ مالك ، اعنى حمار توفيق الحكيم ، واراني كتاب « حمارى قال لي » الذي كان يطالعه .

حمار الحكيم

ما كادت هذه الشخصية الفذة تبدو في عالم الصحافة والادب ؛ وتظهر في دنيا السياسة والمجتمع ؛ حتى تساءل بعض الناس في حيرة وتساءل بعضهم في فضول ؛ فمن قائل : اي شيء هذا اللون الجديد من الراي والفكر ؟. ومن قائل : متى كان للحمير آراء في شؤون بني الانسان ؟ ومتى اصبح للحمير احكام عن البشر واخلاق البشر ؟. ولم اجد بدا ازاء كل ذلك ، من ان اعرف بصاحبي ، وان اشرح حقيقة امره للقراء وان التي مسؤولية آرائه وافكاره واحكامه على عاتقه ، يتحمل وحده تبعة سخط الساخطين ويجني وحده إعجاب المعجبين ، اما انا فشقتي بالبشريه ضعيفة ؛ وثقتي بتقديرها ضعيفة ايضا ؛ وثقتي بانصافها في الحكم اشد ضعفا ؛ ولهذا تنصلت من كل مسؤولية ووضعتها على عاتق هذا الحمار ؛ ولكن هذا لا يمنعني من انصافه في الحكم عليه والتعريف به ؛ ولا يمنعني كذلك من التنويه بفضائله ومبزاته ؛ واذا

علمت ايها القاري انى لم امدح انسانا في حياتي ، واني لم أطر بشرا طيلة عمري ، وان اول كلمات المدح والاطراء إنما صدرت مني لهذا الحمار تبين لك صدق حكمي عليه . وان هذه الاوصاف والفضائل التي خلعتها عليه ، حقائق ثابتة ؛ لا انتظر من وراء التصريح بها جزاء ولا شكورا ؛ ومن نعم الله ان مجتمع الحمير لا يعرف الجزاء ولا يعرف الشكور ؛ وانما يعرف الواجب ، والواجب فحسب .

كان هذا الحمار الفيلسوف شؤما على صاحبه في مصر ، فجر عليه ويلات ؛ واحدث له مشاكل عديدة من جراء آرائه الصريحة الجريئة ؛ وذلك لانه حمار ، يرى الاشياء بمنظاره الخاص ؛ يراها على طبيعتها عارية من مؤثرات الاغراض والعادات ؛ والخوف والطمع لا تؤثر فيه الرغبة ولا الرهبة ؛ فنظرة هذا الحمار الى الحياة نظرة صائبة وحكمه لها اوعليها حكم صادق ؛ وتعبيره عنها تعبير صحيح .

والمجتمع الانساني مجتمع فاسد تسيره الاغراض والعادات ويتحكم فيه الخوف والطمع ؛ وتؤثر فيه الرغبة والرهبة ؛ ونشأت عن ذلك هذه الرذائل التى عكرت صفوه ؛ وهي الانانية والكذب والطمع والنفاق والغدر والخيانة فاصبحت هذه الرذائل دستوره الذى يسيره ويسيطر عليه ؛ وتعارضت هذه الرذائل مع مبادىء الاديان الاصلاحية ؛ ولم يستطع الانسان ان يفرط في دينه رغبة

ورهبة ؛ ولم يستطع كذلك ان يفرط في دنياه خوفا وطمعا ؛ فاوجد لكل رذيلة فتوى ؛ واوجد لكل نقيصة اسما براقا جذابا تختفي وراءه ؛ وتبدات بذلك مظاهرها وثبتت مخابرها ، وصبغت النفوس بصبغتها فاصبحت مالوفة لدى الانسان ؛ لا يرى فيها حرجا على دينه ولا حطا من كرامته ، ولا مسا لخلقه ؛ ولكن هذا الحمار الساذج الصريح اعطى لكل كلمة مدلولها الصحيح ، فضج الانسان من ذلك وكانت المشاكل العديدة التي جرها على صاحبه في الشرق .

وكان هذا الحمار حمارا بمعنى الكلمة ، حسن النية لا يطرق الخبث قلبه ، يحسن الظن بالانسان ويرى فيه المثل الاعلى للمخلوقات ، فغارق ارضه وبلاده واخذ يطوف بلاد الله الواسعة معتقدا انه واجد — لا محالة — بين الامم الانسانية من ينظر نظرته الصائبة الى الحياة ويعبر تعبيره الصادق عليها ، وهو يجهل ان الانسان هو الانسان مهما تلون لونه واختلف شكله ومهما كانت بيئته وكان دينه .

وكان من سوء حظي أن اتصل بي هذا الحمار من دون الكتاب ، وجاريته بعض الشيء في صراحته فجر علي مشاكل كما جرها على صاحبه من قبل .

فهذا سياسي يغضب لنقدي الخفيف للسياسة فيحاول ارغامي على توجيه هذا النقد الى حزب أخصصه أو هيئة أعينها وهو يريد ان

يستغل هذا النقد وهذا القلم لخدمة حزبه لا لخدمة السياسة عامة ؛ وهو يجهل أن هذا القلم شديد العنان ، لا يسخر ولا يباع مهما غلا الثمن .

وهذا سياسي آخر يوجب علي أعتناق حزب سياسي اختاره والا حرم علي الكلام في السياسة ؛ واذا كنت مصرا على نقد السياسة وابداء رأيي فيها ، يحتم علي اذن ، وضع برنامج سياسي أرقى وأحسن من هذه البرامج والنظم المتداولة ، وهو يجهل أن ناقد الشيء لا يتحتم عليه الاتيان باحسن منه وانما على المنتقد (بالفتح) ان يتجنب العيوب ويصلح الأخطاء ويحاول الكمال .

والنقد كان دائما وأبدا دعامة اصلاح ، ولا يغضب منه الا المصر على الفساد ، ولا يتأثر منه الا المحتال الذي يحلو له الصيد في الماء العكر .

كل هذا ولم أبد رأيي بعد ، ولا رأي صاحبي في مسالة السياسة والحزبية في بلادنا ، ولو أردت ذلك لقلت باختصار : أن السياسة في بلادنا سياسة انتخاب ، تنشط وتعمل قبيل فتح الصندوق بايام ؛ حتى اذا ما ظهرت النتيجة وفاز من فاز ، وخاب من خاب ؛ عاد كل شيء الى مجراه الاول ، عاد النشاط الى مكمنه ، وعاد الحماس الى مخبئه ، وعاد البؤس الذي يضرب الامة الى عادته ، وعادت لميس الى عترها ..

وليس هذا كل شيء ، فحتى المرأة ثارت ثائرتها وتفضلت علي بالشتم والسباب ، اللائقين بمقامي .

أما أنت يا سيدتي الفاضلة فقد أسأت فهم عبارتي و أسأت كذلك تفسيرها .

فانني لم أقصد بقولي « إن لدينا آلات للنسل وليس لدينا نساء » الحط من كرامة المرأة ولم أقصد كذلك ان أحملها تبعة انحطاطها الثقافي الذي يقره الواقع ويعترف به فى بلادنا الرجل والمرأة على السواء . فاذا كانت المرأة على هذه الحالة من الجهل فان تبعة ذلك تعود على المسؤولين من ذويها الذين لم يعنوا بتثقيفها وتربيتها ، وتبعة ذلك تعود أيضا على مجتمعها الذي لم ينشئ لها وسائل التربية والتعليم .

أما المرأة ومكانتها في المجتمع وفضلها ونصيبها من حمل عبء الحياة ، كل ذلك أدركه ويدركه الحمار أيضا . فارجو ان تخففي من جدتك وسامحك الله .

كل هذا ولم نسمع بعد رأي رجال الدين الرسمي في دينهم ومسجدهم ، ولا دفاع محطة الاذاعة عن ازعاجها للامنين من مخلوقات الله ، كل هذا ولم نزل في المرحلة الاولى من الحديث مع الحمار ولكنني سأستمر معه فى أحاديثه الممتعة غير مبال بالمشاكل التي ستحدثها صراحته الى ان يقتنع وحده بعدم جدوى محاولاته ؛ فيفارقني من تلقاء نفسه عن طوع ورضا .

الآداب والفنون

قال لي حمار الحكيم :

— ما رأيك فى الاداب والفنون ؟ .

قلت : الاداب والفنون هي عنوان النهوض والرقي لكل أمة والمظهر الروحي لكل شعب ، ولهذا أسست الأمم الحية الكليات للاداب ، والمعاهد للفنون أخرجت نوابغ لا تزال أسماؤهم متألقة في سماء التاريخ ، لم يستطع القدم ان يسدل عليها ستار النسيان ، وتركوا آثارا لا زالت خالدة لم يقو مر السنين ولا اجحاف الدهر على أن يمسها بسوء ، لقد كتب الله للاداب والفنون الشهرة والعظمة والخلود في هذه الدنيا ، بقدر ما كتب للمشتغلين بها من البؤس والشقاء والنكران .

فالاداب والفنون هي المقياس الصادق لأحوال الأمم ، وهي الميزان الصحيح لقوة انسانيتها ، وشرف عاطفتها ، وسمو روحها ؛ وهي جديرة بالعناية ، وجديرة بالبحث والتقدير ؛ فهي ليست من الكماليات وليست طلاء خارجيا كما يتوهم ، بل انها اساس لا بد منه لرقي الامة وحفظ كيانها .

قال الحمار : — إنني أتعجب ان يكون هذا رأيك اليوم فى الادب وقد كنت فى السابق ترى خلاف ذلك !

قلت : — ما ذا تقصد ؟ . لم يكن لي أبدا في يوم من الايام رأي في الادب يخالف هذا . .

قال فى خبث : — الم تنزل فى يوم من الايام على الادب بمعولك الهدام ، وأنت تصرخ في الناس : إن الادب قد مات وان الاشتغال به اليوم من العبث ؟ .

قلت : — أنا ؟ . ما هذا الهذر ؟ . .

وافحمني ابن الحمار بقوله :

— انك قصير الذاكرة . . أنسيت ما كتبته بقلمك فى الصحف الشرقية سنة ١٩٣٨ ؟ . تحت عناوين مختلفة ؛ منها « هل يأفل نجم الادب ؟ وادباء المظهر ، والاديب الاخير ، وغيرها » !

وتذكرت انى نشرت — حينئذ — رأيا شاذا فى مجلة «المنهل» بالمدينة المنورة وتعصبت له فعقبته بعدة اقاصيص في الموضوع . وغاظني ان يتغلب علي حمار طويل الاذنين ، فحاولت ان اعاند ، والعناد طبيعة البشر ، ولكني لم اجد بدا من الاذعان وحجة الحمار قوية فقلت :

— وهل أثر ذلك على الادب ؟.

— طبعا لا !.

— ذلك — اذن — هو سر خلود الادب ؛ ولن تجد مثل الادب يزدهر وانت تحاربه بعنف ، ويذبل وانت تسايره بلين ، فهو الثورة الكامنة ، يتطاير لهيبه كلما حركته .

— اراك قد ابتعدت بي عن الموضوع !.

— انني فى صميمه ، الم تسالنى رأيي فى الاداب والفنون ؟ .

— لكني اريد رأيك فى الآداب والفنون في الجزائر .

— انك تزج بي في موضوع شائك لا تحمد عقباه !

— وهل يضيرك ان تصرح برأيك في ادب بلادك ؟ . ولا اراك الا مسديا له خدمة جليلة بذلك .

واستدرجني الى الحديث فقلت له :

اذا عرفت الاداب والفنون بتعريفها الحديث الصحيح ، على انها التعبير الصادق عن مشاعر المرء وخواطره واخيلته وخلجات نفسه ، لا يسعنى الا أن اقول قولا واحدا وهو : ألا ادب ولا فن عندنا .

— : ويلك ! اتنكر ان فى الجزائر حركة ادبية وفنية مباركة ؟ . .

— انني لا انكر ان في الجزائر مواهب ادبية وفنية كامنة في النفوس فى حاجة شديدة الى الخدمة والتوجيه ، وكل ما لدينا من

الكتاب والشعراء والفنانين هم عبارة عن مواد خام تنقصها الصناعة وينقصها التهذيب ، ولا يجوز لنا ان نفتخر بهذه المواهب التي لم نكتسبها بجهودنا ، وانما هي من نعم الله ، يجب علينا ان نحمده ونشكره عليها ، ولا يحق لنا ان نفتخر بها الا بعد خدمتها واخراجها لعالم الحياة غذاء روحيا صالحا للتناول ؛ والامة التي يوجد الذهب في معادنها تعتبر فقيرة ما لم تقم باخراجه وتصفيته وتهذيبه حتى يصبح في تلك الصفرة الخلابة ، معدنا ثمينا يسيل لعاب عاشقيه . والفرق بين هذه المواهب والاداب والفنون نفسها كالفرق بين تراب الذهب بلونه القاتم في طبقات الارض العميقة ومعدن الذهب الثمين بهذا اللون البراق المغري .

فان الشعر لم يعد ذلك الكلام الموزون المقفى فحسب والكتابة لم تعد تلك الالفاظ الرنانة والتراكيب الصحيحة ، والموسيقى ليست مجرد العزف على القطع ورفع الحنجرة بما فتح الله به من الكلمات .

نعم فان هذه المواد ضرورية لكل ادب وفن ، لكنها ليست هي الادب والفن ، وما هي الا هياكل تنقصها الروح .

— وماذا تعني بالروح ؟.

—: الروح هي الصدق في التعبير عن المشاعر والاحساسات

وخلجات النفس وبهذا فقط ؛ يتسنى للأديب او للفنان ؛ النفوذ الى مشاعر الغير ومخاطبة ارواحهم ؛ فانت اديب او فنان اذا ما استطعت ان تعبر تعبيرا صحيحا عن شعورك واحساسك ؛ وان تصور تصويرا صادقا اخيلتك وخلجات نفسك دون ان تحسب اي حساب لرضا الجماهير او سخطهم ؛ والا فانت منشئ لا كاتب ؛ وانت ناظم لا شاعر وانت عازف لا موسيقار .

قال حمار الحكيم : — انك تبالغ !..

وذكر فلانا وفلانا وغيرهما من الادباء والفنانين ..

قلت : — ان الامة التي فيها نفر من الأدباء ومثلهم من الفنانين هي امة فقيرة في هذا الميدان .. اما هذه الجثث الفاقدة الروح التي اصطلح الناس على تسميتها ادبا وفنا ؛ فيجب ان ننزل عليها بمعاولنا دون شفقة ولا رحمة . وننشئ بدلها ادبا وفنا حيين .

—: انك سريع الهدم!.

—: ان الهدم ضروري للبناء الصحيح

—: وكيف البناء؟.

—: لست خياليا فاقترح على الامة انشاء الكليات للاداب والمعاهد للفنون ، وما علينا في الوقت الحاضر الا ان ننشئ وسائل للنشر والنقد والتوجيه والتشجيع ، وسيتقدم في بادي بدء ذوو

المواهب وغيرهم ، وسنرى الكثير من الغث والسمين ، ولكن بفضل النقد النزيه والتوجيه النافع يسير الركب الى الامام في طريقه المستقيم تاركا وراءه كل عاجز لم يرزق المواهب التي تخول له مسايرته .

فان هناك مذاهب عديدة جديدة في الاداب والفنون من الواجب معالجتها ودراستها والسير على غرارها ، ومن العبث اهمالها لأنه لم يكن لنا حظ في ايجادها وخلقها . ومن التعصب الذميم ان ننكر النافع الجيد من مذاهب الغير ، سواء في الادب او في الفن لأن صاحب هذا المذهب او ذاك لا يمت الينا بصلة .

ولا أريد بهذا ، ان أتوغل في بحث مدارس الأدب ومذاهب الفن ، وأنا لا زلت أقول اننا لا نملك منها قليلا ولا كثيرا ، فكل ما لدينا من الكتابة ، هي هذه المقالات الانشائية البسيطة التي نقرؤها في الصحف ، مع ان هناك أدبا حيا ذا أثر فعال في التربية والتوجيه ، هو أدب القصة ، فهل لدينا منه شيء ؟.

— لا شيء طبعا . .

فمن العبث اذن ، ان نتكلم عن المذهب الرمزي والواقعي فيه ومن العبث ايضا أن نتكلم عن الفوارق بين القصة والاقصوصة ، وان نتكلم عن الرواية المسرحية وان نبحث عن الملهاة والمأساة !.. والشعر

عندنا هل تجاوز المقطوعة والقصيدة الى غيرهما من الوان الشعر الجديد؟. وهل خرج عن هذه المعاني المكررة المألوفة الى غيرها من المعاني الحديثة السامية ؟.

أما الموسيقى عندنا فمن الخجل ان نتناولها بشيء من البحث او التحليل ، وهي لم تتعد أيدي بعض المحترفين ، يرتزق بها كل من لم يساعده الحظ على الارتزاق من مورد آخر ، سواء كان يجيدها او لا يجيدها ، وسواء أنعم الله عليه بصوت ملائكي عذب ، او كان صوته من تلك الاصوات التي ذكرها الله في القرآن الكريم .

— تقصد صوتي ؟

— نعم صوتك واصوات فصيلتك ؛. فلنترك اذن فن الموسيقى وشأنه الى ان يبعث الله به من جديد ؛ واما التمثيل ، واما النحت ... واما الرسم ... فلم تزل كلها معجمة بالنسبة الينا لم تحل رموزها بعد .

— والخلاصة ؟.

— الخلاصة ، ان كل ما لدينا من الثروة الادبية ، هذا النزر البسيط من أدب المقالة ، وشي ضئيل من النظم ولا فن مطلقا ...

ثم قلت : — وهل لنا ان نزعم بعد كل هذا ان لدينا آدابنا وفنوننا ؟ .

قال لا أدري الجواب شائك .

قلت له : — هذه هي الحقيقة المرة ، فاذا حازت الرضا فهي الحقيقة الواقعة ، وإن أثارت السخط فهي الحقيقة الواقعة أيضا . فلا الرضا ولا السخط بنافعين وانما تنفع المحاولة وبذل الجهود لانهاض الاداب وخلق الفنون ؛ فهي وحدها المقياس الصادق لرقي الشعب ، وهي وحدها الميزان الصحيح لتقدم الامة ، وهي وحدها تحفظ كيانها وتثبت قوميتها ، وتخلد ذكراها وترفع شأنها بين الأمم

قال الحمار : ان كلامك حق يا صديقي .

قلت : صديقك ولكن على اساس انك حمار وانا بشر .

الأدباء والفنانون

دخل حجرتي حمار الحكيم وانا منهمك في انهاء هذا الموضوع وما كاد يلقي نظرة على العنوان حتى صرخ :

—: ما هذا ؟

—: ما هذا ! لقد اثرتها علي زوبعة بحماقتك .

—: وبماذا اجبت ؟

—: اجبت بما فتح الله

وجلس ابن الحمار على افخم كرسي عندي وفتل شاربيه وقال:

اقرأ علي الموضوع !.. لأرى رأيي فيه ولا تنسى انني شريكك في كل ما تكتب ولا اسمح لك بنشر شيئ دون موافقتي والا اثرت عليك قضية .

— : لم ننته بعد من قضايا البشر حتى نضيف اليها قضايا الحمير اليك الموضوع اسمع ..

لم اكن افكر في هذا العنوان ، ولم أكن اتوقع الكتابة فيه ، وان كنت توقعت العودة لموضوع الاداب والفنون بين لحظة وأخرى ، حيث كنت واثقا انه سيضطرني الى ذلك اعجاب العقلاء الواقفين على حقيقة الاداب والفنون في بلادهم العارفين اصولها وحدودها . او سخط المدعين لهذه الآداب والفنون عن غرور وادعاء ، ظانين انها هذه المقالات الانشائية القليلة التي يسودون بها صفحات الجرائد بين فينة واخرى ، وانها هذه الكلمات التي يتشدقون بها امام السذج من العوام والناشئة الغرة

كنت واثقا من ان احد هذين الفريقين سيضطرني للعودة لهذا الموضوع . ولكني لم أكن اتوقع أبدا انهما سيجتمعان ليرغمانني على العودة اليه والكتابة فيه مرة اخرى .

اما الفريق الاول فلم يكتف بالكلام بل ذهب الى اقتراح العنوان وتعيين الموضوع وهو يدرك حقيقة النقد ويدرك فوائده الجمة .

واما الفريق الثاني ، فريق المتأدبين ، فقد ثار سخطهم حين علموا ان بضاعتهم ليست من الآداب في شيء قليل ولا كثير وذهبوا يملأون جماعات العوام الساذجة ، ومحافل الناشئة الغرة صراخا وضجيجا فمن قائل : هذا هادم ، ومن قائل : هذا جاهل

ومن قائل ، ما هي معلوماته وشهاداته ؟ ومن قائل . . . ومن قائل

فانى لا اسألك يا سيدي الساخط الثائر ، يا سيدي المجروح في أنانيتك ، لا في ادبك وفنك ، ان تبدي لى معلوماتك وشهاداتك وانما أسألك ان تبرز لي ما انتجته قريحتك من الآثار الادبية والفنية وسأملأ الدنيا انا بدوري ، ضجيجا وصراخا بالاعجاب بك والتنويه بآثارك ، لا بتجهيلك والتنديد بك كما فعلت معي .

لأنه لا يهمني ابدا سخط احد أو رضا احد ، ولكن يهمني ان تبرز الجزائر اديبا او فنانا حديثا يحلي جيدها ويزيده بهجة ورواء .

وبعد ؛ فدع انانيتك — رعاك الله — ودع سخطك ورضاك بعيدين وخذ هذه المقاييس البسيطة ، قسها على نفسك ، وانظر بعد ذلك ، اذا ما كانت تنطبق عليك وقل لى بعد ذلك ، اذا ما كنت اديبا او فنانا ؟ وارجو ان تكونه ، فان ذلك يسرني جدا ويزيدني فخرا واعجابا .

— وما هو الاديب ؟

— إني لا استطيع ان اعرف لك الاديب بكلمتين ، كما تعرف أنت الفاعل لتلاميذك ، فتقول لهم : هو الاسم المرفوع الذي .. وحدث منه الفعل ، او كما يعرفه عامة المصريين فيقولون : هو العامل الذي يكسر الاحجار ..

وانما ساحتاج في تعريفه الى كلام طويل محفوف ببعض الغموض والاسرار ؛ لأن الاديب مخلوق عجيب وغامض كل الغموض وستضطرني الى مراجعة مسوداتي واوراقي البالية ؛ كما يرجع التاجر المفلس الى دفاتيره القديمة ؛ ولا اذهب بك بعيدا فقد سبق لى ان عرفت لك الاديب مرة فما علي — اذن — الا ان استعين بذلك التعريف اليوم دون الالتجاء الى هذه القريحة المتعبة المكدودة

فالأديب : بشر من حيث الشكل ولكنه مخلوق آخر في اطواره وافكاره لا يمت الى أهل الارض بصلة ...

فاذ ما اشتهر البشر بحب المادة وتقديس أجسامهم والتعلق بها ...

فقد اشتهر الأديب بمقته للمادة ومقته لجسمه الفاني ، فهو يحب الخلود ويهيم به ، ولذلك كان حبه كله لأفكاره ، وتقديسه لمخلوقاته الفنية .

يجد الأديب فى الاشتغال بالآداب لذة ، ويجد في تصيد المعاني الحسان وابتكارها لذة أخرى ، ويجد كذلك فى اذاعتها بين الناس وإثار اعجابهم او سخطهم على السواء متعة .

فهو يتلذذ ويتمتع كبقية البشر ولكن لذته ومتعته لا يتذوقها غيره ، ولا يشاركه فيها سواه .

يغدو الأديب في هذه الملاذ كلها وهو يجهل نتائجها العقيمة ومضارها الفتاكة بجسمه ، بل لا يفكر في هذه النتائج ولا يلتفت اليها لأنها تتعلق بهذه المادة وتتعلق بهذا الجسم ، وهو لا يعنيه من امره شيء .

ويغدو الاديب يسعد ويتلذذ على حساب نفسه وصحته ينحت متعته من عقله وجسمه يجد في الوان العذاب لذة ، ويجد كذلك في ضروب الشقاء متعة ، بل يجد في هذه الآلام التي يقاسيها وهذه المآسي التي يعيش فى اكنافها نبراسا ينير تفكيره ويكشف له عن زيف الحياة وغشها .

فيتمتع بهذا الاكتشاف ويسعد بهذه اللقية التي وصل اليها عن طريق الآلام والشقاء ؛ لا لشيء ، الا أنها تمده بما يسميه الخلق الفني البديع .

تتعذب نفس الاديب وتتطلب شيئا من الترفيه ؛ فلا يرحمها لأن الراحة تتطلب الكذب على النفس والتمويه عليها ؛ وهو لا يريد ان يغش نفسه ولا يريد ان يكذب عليها وإنما يصدقها القول ويصدمها بالحقائق مهما كانت مؤلمة مريرة .

وتتوق روحه الى شيء من السعادة ، ويرغب جسمه فى شيء من الراحة ، فيغمر روحه في الوان العذاب ، لأن السعادة وهم وخيال ،

والعذاب هو طابع الحياة الحقيقي .

ويغمر كذلك جسمه في ضروب العناء والتعب ، لأن راحة الجسم معناه ركون الذهن وقتل حاسة التفكير ، وهو حريص كل الحرص على تغذية هذه الحاسة وتنميتها .

وهكذا تغدو نفسه البشرية تتخبط في ضروب الحرمان وتتعذب في آلام الحقائق ، ويغدو جسمه يضمحل في آلام الاجهاد والعناء الفكري الى ان يذوب كما تذوب قطعة الملح التي تغمرها المياه .

الاديب مصاب بمرض مزمن لا يرجى شفاؤه ، ومرضه هو عيشه في تفكيره المتواصل لا يكاد يفارقه لحظة في حياته اليومية ، وحتى اذا ما آوى الى فراشه في هجعة الليل ، استغرق في لجج التفكير الذي هو لذته الوحيدة ومتعته المحظية غير مبال بما تكلفه هذه المتعة من ارهاق الاعصاب ، وعناء الجسم بل يستمر في ملاذه الفكرية يفني فيها نفسه دون ان يستطيع التخلص منها او التخلي عنها .

الاديب انسان ضعيف يريد ان يعيش بعقل جبار .

وبعد .. فهل أنت أديب يا سيدي ؟.. لعلي هولت عليك الأمر وبعدت عنك الغرض ، وصعبت عليك السبيل ، وأنت في حاجة الى التسهيل والتيسير ، فاليك إذن تعريفا آخر أسهل وأخصر من السالف أرجو ان تجد فيه بغيتك وتنشد فيه ضالتك .

الاديب هو الذي يستطيع أن يجعل من أدبه لغة روحية يخاطب بها أرواح الغير ؛ يعبر بها تعبيرا صادقا عن مشاعره ؛ تعبيرا دقيقا عن خلجات نفسه واحساساته ؛ ويصور بها تصويرا واضحا جليا أخيلته وتصوراته . دون أن يحسب حسابا لسخط هذا أو رضا ذاك .

الاديب هو الذي يستطيع ان يصل الى أعماق النفوس فيحللها والى دقائق الأشياء فيصورها .

وبعد هذه التسهيلات كلها ... فهل أنت أديب يا سيدي ؟ . فان لم تكن أديبا فلا تتحامل علي فان الذنب ليس ذنبي وإنما هو ذنب الاديب الذي لم ترضه حالتك ، فانما أختار لنفسه هذه الحالة الشاذة الغريبة .

قال حمار الحكيم : إن كلامك حق ، ولكني لا أريد أن أشاركك مسؤوليته .

قلت : هي عادتك يا ابن الحمار !. تثيرها علي زوبعة وتتملص من تبعتها .

نحن والغرب ...

وجدني حمار الحكيم ، في مناقشة مع كاتب غربي يزعم أنه يهتم بشؤون الشرق ، ويعالج مشاكله ، ويصور النواحي الرائعة من حضارته ، وقدم الي هذا الكاتب رواية من تأليفه كبرهان على صدق قوله ، ودليل على صحة زعمه ، وكان ينتظر مني — دون شك — أن أغمره بعبارات الشكر والاطراء ... ولهذا كانت دهشته كبيرة عند ما قلت له :

— ولما ذا تحمل نفسك هذا العناء كله ؟!

قال : أحمل نفسي هذا العناء ؟!. ذلك لأني أعتقد أني اخدم قضية عادلة .. لأني أرى أن بعملي هذا ، استطيع ان أقرب بين الشرق والغرب ، وذلك بان أكشف للغربيين عن محاسن الشرقيين .

قلت : الاولى أن تكشف للغربيين عن مساويهم وبهذا فقط ، تستطيع ان تقرب بين الطرفين المتباعدين ...

قال — انا لا أنكر ان للغربيين مساويهم ومحاسنهم كما ان للشرقيين مساوي ومحاسن ؛ لكن لما ذا ترى في ذكر مساوي

الغرب ، أداة للجمع لا أداة للتفرقة ؟ .

قلت — إنك تسلم ان كل علاج للمشاكل لا يبنى على أساس المساواة هو علاج لا يجدي ؟

قال — نعم أسلم بذلك ، لأنه حق ..

قلت — وأين هذا التساوي وانتم تنظرون الينا كشعب منحط في حاجة الى التربية والتعليم ؟ ولكن — مع الأسف — تتجلى هذه التربية في استغلالكم لبلادنا ؛ ويظهر هذا التعليم في اهانتكم لشعبنا ؛ حتى أنكم تصبغون دائما اعمالكم ازاءنا — وحتى القاسية منها — بصبغة التحضير والتمدين ..

قال — لعلك تبالغ !..

قلت — أتنكر أن للاستعمار الغربي أعمالا فظيعة في البلاد والشعوب المستعمرة ؟.

قال — لا أستطيع انكار ذلك ...

قلت — أو لم تكن دعوة هذا الاستعمار ، أنه يقوم برسالة تمدينية ؟..

قال — يبدو أننا خرجنا عن الموضوع ..

قلت — اننا في صميمه ، حيث نتج من هنا تصويركم للغربي في صورة المعلم المثالي ، والشرقي في صورة التلميذ الشرس البليد ، فبعثتم

في نفوس أبناء بجدتكم الغرور والكبرياء، حتى اصبحوا يتخيلون أفظع مساويهم محاسن يستحقون عليها الشكر والثناء، ولهذا فهم في حاجة ماسة اليوم، الى ان يعرفوا انفسهم جيدا؛ ويلمسوا مساويهم ويروها، لينزلوا من صرح أوهامهم وغرورهم، وهنا فقط يمكن ان نلتقي.

قال — ولا يفوتنك ايضا أنكم تعيشون كثيرا في الماضي ويجب عليكم ان تعودوا قليلا الى الحاضر حتى يمكن ان نلتقي.

قلت — أنتم الذين ارغمتمونا على الانزواء في خبايا الماضي، فقد أفسدتم علينا حاضرنا فذهبنا الى ما ضينا ننشد فيه بعض العزاء والسلوى..

وانصرف الكاتب الغربي من عندي، وهو يشك في نفسه ويشك في رسالته ومهمته... وقال لي حمار الحكيم:

— ما قولك في كتاب الغرب على وجه العموم؟.

— كثيرهم من الكتاب يجيدون تارة، ويسفون أخرى، فهم بشر يعتريهم النقص، ويستولي عليهم الغرور، وتتسلط عليهم الأنانية، ويتلبسهم التعصب البغيض.

— تقصد تلك النقائص التي يمتاز بها الانسان عن الحيوان؟!

— أني ابيح لنفسي أن أتكلم في أبناء جنسي بما أريد، ولكنني لا أسمح لك أبدا ان تفتح فمك بكلمة واحدة في شأنهم!.

فكتم ابن الحمار ابتسامة خبيثة كادت تفر منه ثم قال:

— حقا ان الكاتب يسمو ويحلق في بعض الاحيان الى ان يصل السهى وينحدر اخرى حتى يختلط بالرغام.. ولكن ماالذي تأخذه على الكاتب الغربي؟.

— تعصبه ضد الشرق وعدم فهمه له. وما عليك الا ان تلقي نظرة على الكاتب او الشاعر الغربي لتراه يسمو فيما يكتبه من ادبيات او اجتماعيات سموا يجعله يحتل المكانة العالية في قلوب القراء، على اختلاف اجناسهم ومشاربهم، حيث تجد في كتابته روح الاخلاص والايمان والتأثر مع سعة في الاطلاع، ودقة في الملاحظة، ومتانة في الاسلوب، وسداد في الرأي. ولكن انظر اليه وتأمله عند ما يكتب عن الشرق والشرقيين، كيف ينزل عن صرحه الشامخ الى الدرك الاسفل من الانحطاط، لما يأتي به من الترهات والسخافات التي يمليها عليه تعصبه البغيض. وكم من كتاب الغرب، يدعون معالجة الشرق وشؤونه بكتابات تدعو — لا أدري — أإلى السخرية او الاشفاق؟. وكم من كاتب ضليع كان يحتل في نفسي مكانة لا تقل عن مكانة غيره من كبار كتاب العربية، ولكنني حينما قرأت له مايسميه بـ (المشرقيات) تلاشت مكانته في نفسي، وانمحى إكباري له، وزال إعجابي بعقله الذي بدا لي صغيرا ضعيفا واهيا، ولا أرى سببا لذلك سوى التعصب

البغيض المتوغل في نفوسهم ضد الشرق والشرقيين ، فكلما تعرضت مسألة الشرق ، ثار التعصب وطفح فطمس الانصاف ، واضاع الحق ، واعمى البصائر ، وأخذ الباطل طلاء الحقيقة وزخرفها ، ولبس الخطأ ثوب الصواب ، وتزيت الاحقاد والبغضاء ، بزي النزاهة والانصاف ، وانقلب الكاتب الكبير القدير المستميت في سبيل الحقيقة ، كاتبا زائغا لا هم له الا ارضاء غرضه ، واشباع شهوته بالنيل من الشرق والشرقيين ، وكل ذلك باسم العلم ، باسم المدنية ، باسم الاجتماع ، باسم الأدب .

قال الحمار — نعم تلك هي اسلحتهم التي يستعملونها دائما ضدنا .

قلت — ضدك ، وانت لما ذا ؟ . فانت عالمي ..

قال — انسيت اني حمار شرقي ؟ .

قلت — اما تكفي هذه التفرقة بين اجناس البشر حتى تريد ان تضيف اليها تفرقة أخرى بين فصائل الحيوان ؟ .

قال — دعنا من هذا ! . لكن ألا ترى ان بين كتاب الغرب بعض المنصفين الذين لا تهمهم الا الحقيقة وحدها ؟ .

قلت — قليلون جدا الذين يتوخون الانصاف منهم ، وهؤلاء الذين لا تهمهم الا الحقيقة وحدها ؛ هم الذين كشفوا لنا عن نيات زملائهم السيئة ورفعوا الغطاء عن خباياهم ، وحتى هذه الطائفة القليلة من المخلصين لأقلامهم وأفكارهم ، لا تجيد حينما تتصدى للكتابة عن

الشرق ، وتجدها لا تفتر من ترداد لفظة « أسرار » ينعتون بها كل ما يخص الشرق ؛ فبلادنا بلاد الأسرار عندهم ؛ وشؤوننا أسرار ؛ وآدابنا أسرار ؛ فكل شيء شرقي هو سر غامض بالنسبة للغربي .. وهذا أمر لا شك فيه ؛ فسيبقى الشرق وافكاره وشؤونه ؛ الى الابد سرا غامضا عند الغربي ؛ كما كانت الروح ، وكما ستبقى الى الابد سرا غامضا بالنسبة للمادة .

ثم قلت — كيف يتسنى للغرب الممعن في المادية ان يفهم ويدرك حقائق الشرق ؟ اللهم الا اذا تسنى للمادة ان تستجلي كنه الروح الخفي .. الا ترى بعد هذا ان الشقة بعيدة بيننا ؛ بعد الشرق عن الغرب ؟ .

الزواج

جاءني حمار الحكيم مبكرا هذا الصباح على خلاف عادته كل يوم ، فتعجبت من ذلك ، لأنى اعرفه دقيق المحافظة على النظام والمواقيت ، وهو لا يتخلف دقيقة واحدة عن الوقت المحدد ، ولا يتقدم عنه فاوجست خيفة من هذا التبكير وعرفت ان فى الأمر جديدا عن أعمالنا المعتادة وما كاد يجلس حتى ابتدرته :

— خيرا ان شاء الله ، ما هذه الزيارة المبكرة ؟

قال — جئتك في مسألة خاصة .

قلت — لو لم اعرفك حمارا لقلت انك اتيت تستدين مني بعض النقود .

قال — وهل عندك نقود حتى يطمع الناس في الاستدانة منك فان كل ثروتك هذه القصاصات من الورق التي تنفع لايقاد النار

فكرت مليا فى قوله ثم قلت له :

— حقا ما تقول .. فلا تنفع عصارة هذه الافكار الا لايقاد

النار وهي مع ذلك كل ثروتي وعزائي .

ثم قلت — دعنا من هذا وقل ما سبب هذه الزيارة المبكرة ؟

قال — جئت استشيرك في امر مهم .

قلت — هل هو عمل جديد ؟

قال — لا .. لم اعثر حتى الآن على عمل يشرفني .

قلت — اذن ماذا ؟

قال — ما رأيك في الزواج ؟

قلت — رأيي في الزواج هو رأي (برنارد شو) فهو كالجمعية السرية الخارج عنها يجهل عنها كل شيء ، والمنخرط فيها لا يستطيع ان يقول عنها شيئا .

قال — لم اعن هذا وانما اقصد زواجي .. ما رأيك فى زواجي انا ؛ فقد خطر ببالي الا ابقى عازبا فان ذلك يجر علي الشبهات ويحط من قيمتي كحمار اجتماعي ؛ ثم لا بد لي من خلف صالح يخلفني .

مكثت برهة مشدوها ولم ادر بماذا اجيب ، لأنى لم اعالج ولو مرة زواجا من زواج أبناء آدم حتى اعطي رأيي السديد فى زواج حمار من اتان ...

قلت — لا استطيع ان افيدك برأيي فى هذه المسألة لانني لم

يستقر لي رأي حتى الان عن ايهما احسن ؛ الزواج ام العزوبة ! فاذا ذهبت الى العزاب وجدتهم يتمنون الحياة الزوجية ويتلهفون عليها ، واذا باحثت المتزوجين في هذا الشأن وجدتهم ينحون على الزواج باللائمة ويقولون انه شر لا بد منه ؛ وانني لا ادري اي الفريقين على حق واي الرأيين اصوب .

قال — هذا عندكم يا استاذ ... انتم البشر لان اغلبكم يجهل الرسالة التي خلق من اجلها فقد تغلبت عليكم الانانية وحب الذات ؛ الرجل والمرأة على السواء . اما نحن فلا يجهل اي منا بانه حمار ابن حمار خلق للعمل الشاق والعيش البسيط ؛ فانك لا تجد في فصيلتنا من تحدثه نفسه بانه افضل من الحصان لو لم ينكره الزمن ؛ وانك لا تجد في فصيلتي من يتمنى علفا من القمح ؛ ولا تجد من يلوم الدهر او يتبرم من الحياة او يشتكي من الدنيا فكلنا راض عن حياته قانع بها ؛ وعليه فشأننا غير شأنكم ؛ ويمكنك ان تعالج مسألة زواجي دون ان تخشى ان تعترضك اية مشكلة .

قلت — الا يمكنك تاجيل هذه المسالة الى فرصة اخرى ؟ فان لدينا مسائل هامة تتطلب البحث المستعجل .

قال — لا يمكنني ذلك ... فان مسألة زواجي اهم من كل مهم

قلت — كنت تتهمنا نحن البشر بالانانية وحب الذات واذا بك غارق فيها لاذنيك الطويلتين

قال — ابدا .. ليس هذا الامر من الانانية في شيء ؛ فانني لم اوثر نفسي ؛ وانما اردت ان اكون كجميع ابناء الفصيلة ومعظم ما هنالك أنني احسست بنقص في شخصيتي احببت اتمامه .

قلت — دعنا من هذا الجدل البزنطي ؛ وقل لي هل وقع اختيارك على صاحبة الحسب والنسب ؟

قال — انك تعرفني اجنبيا عن هذه الديار لا اعرف فيها حمارا ولا اتانا .

قلت — ومن قال لك انني اشتغلت مكاريا او خفير اصطبلات حتى اعرف فصائل الحمير وافرق بين الخبيث منها والطيب ؟

قال — لا تغضب يا استاذ ! واشملني بحلمك ... فانني لم اقصد شيئا مما ذكرت

قلت في حدة — اذن ما ذا ؟

قال — اريد استشارتك في نوع شريكة العمر .

قلت — خذ لك اية اتان تعثر عليها والسلام .

قال — لا تنس انني است كبقية الحمير فانا اتمتع ببعض الثقافة .

قلت — فاسلك اذن مسلك المثقفين .

قال — ماذا تعني ؟..

قلت — اعني ان تتزوج باتان أجنبية :

قال — ما هذا الهذيان ... أأصبت في عقلك ؟.

قلت — ابدا ... فان الشائع في هذه الايام هو زواج المثقفين باجنبيات ، واي مانع في ان يتزوج حمارنا المثقف باتان أجنبية تليق بمقامه المحترم .

قال — انك لا تعني ما تقول ...

قلت — لماذا ؟..

قال — اما يكفي هذا الانحلال الاجتماعي والخلقي الذي جره زواج بعض رجالكم من الاجنبيات حتى اضيف اليه انحلالا آخر في فصيلة الحمير ؟

قلت — كيف ذلك ؟

قال — زواجي من اتان اجنبية تخالفني في الجنس والعادات والتفكير ، فيه خطورة كبيرة على اخلاقي وعاداتي وتفكيري

قلت — يبدو لي انك تهول الامر ... ولا تنس انك انت الذي ستتزوجها ، وعليه فانت الذي ستفرض عليها عاداتك واخلاقك وتصبها في قالبك .

قال — انني لم أر حتى الآن حمارا شرقيا تزوج باتان عربية ولكني اعرف كثيرا من الرجال الشرقيين تزوجوا من نساء اجنبيات ولم أر بينهم من استطاع ان يعرب زوجه الغربية وقليلون جدا الذين لم تفرنجهم ازواجهم .

فكرت مليا ثم قلت :

— هذا صحيح ... ولكن ما هي الاسباب يا ترى ؟...

قال — هناك اسباب عامة تتعلق باخلاق المرأة من حيث هي امرأة واسباب خاصة تضاف الى اخلاق المرأة الأجنبية .

قلت — انك ستتورط في فلسفة عميقة .

قال — لا ... الأمر بسيط جدا واليك بيانه .

قلت — هات ...

قال — المرأة على وجه العموم تهمها بحب التسلط على الرجل وهي تبذل ما في وسعها لذلك ، لا تعرف الملل ولا الكلل وهي على وجه العموم ايضا ، عديمة الثقة باقواله وافعاله فهي تنفر من الامتثال لأوامره وتعاليمه ونصائحه الا اذا اضطرت الى ذلك رغبة فيه او رهبة منه وذلك لأن جرثوم الانانية في المرأة اقوى منه في الرجل فهي تحب التسلط عليه والتحكم فيه وترغب في انقياده لها ، وفي نفس الوقت تكره الخاضع لسلطانها ، وتبغض الراضي بحكمها وتحب الثائر عليها المتمرد عنها .

قلت — ما هذه المتناقضات في الجنس اللطيف .

قال — نعم انه لجنس غريب .

ثم استرسل في تحليله فقال :

— ان المرأة مع انانيتها تشعر بضعف طبعي غرزي فيها . فهي من الناحية النفسانية ترتاح الى الرجل القوي الذي يبسط عليها سلطانه العارم ويتسلط عليها ، فتستكين اليه لأنها تشعر بحمايته ورعايته .

فهي تريده ضعيفا وتبغض ضعفه ، فهي تجد متعة في التغلب عليه لكنها تجد حسرة في استسلامه اليها ، لأن بهذا الاستسلام ينهار في قلبها ذلك الحصن الذي كانت تتمتع بحمايته ، وترتاح الى قوته وجبروته .

قلت — ثم ماذا ؟

قال — هذه الاسباب العامة وهي تتعلق باخلاق المرأة من حيث هي ، ويضاف اليها بالنسبة للأجنبية انها ترى نفسها ارقى منه عنصرا ، واسمى منه حضارة ، ترى نفسها ابنة حاكم وهو ابن محكوم ، سيدة وهو مسود ، ترى في زواجها منه تنازلا منها لطبقته ، فهي اذن ، تمن وتتدلل وما عليه الا ان يرضى ويتذلل أو حدث الخلاف وساد الشقاق وكان بعد الزواج الطلاق .

قلت — ان كلامك حق لكنني لا أتحمل مسؤوليته ..

قال — دعنا من هذا ولنعد للموضوع .

قلت — نصيحتي اليك ان تصرف فكرك عن الزواج فانت حمار وديع واني اخشى عليك من تسلط الانثى وسيطرتها عليك فيخسرك المجتمع الذي أخذ يعجب بك وبآرائك السديدة .

قال — صدقت يجب ان نعيش للمجتمع ومع المجتمع .

فلسفة الحمار

قال حمار الحكيم — سألني سائل عن الحرية و العدالة و الانسانية ؛ ما هي معانيها و هل لها وجود حقيقي في الارض و بين البشر ؟ أم هي مجرد كلمات تزين قواميس اللغة ؟

قلت — لا شك فى ان الذي سألك معتوه .

قال — لماذا ؟

قلت — لأنه لا يوجد فلاسفة بين البشر اليوم ، حتى يوجد فيلسوف بين الحمير ، يوجه اليه سؤاله .

قال — انك تهينني دائما ، و تحط من قدري و لو لم أكن حمارا لما تحملتك الى هذا الحد .

قلت — أرجو أن لا يذهب بك الغرور الى أن تدعي أنك فيلسوف القرن العشرين !

قال — انا لا ادعي ذلك ، لكن هذا لا يمنعني من إجابته .

قلت — يا صاحبي ! ما لنا و لهذه الاشياء العميقة العويصة فحسبنا أن نكتب على هامش الحياة ، و لنترك هذه البحوث الى

سادتنا الفلاسفة و العلماء .

قال — لا ... لا . . لا بد من الاجابة .

قلت — حاول ، لكن على مسؤوليتك الخاصة .

قال — منذ مدة أصبحت تتملص و تفر من المسؤوليات .

قلت — كنت قبل أن أعرفك أعيش فى آمان أتمتع برضاء الجميع ، فأفسدت بيني و بين الناس ، و آثرت علي سخط بني بجدتي بغلظتك و وقاحتك .

قال — لا تفكر يا صاحبي في النكوس الى الوراء الان ... و قد سرت معي فى هذا الطريق فلم يبق عليك الا المضي فيه رضيت أم كرهت ؛ أما المسؤولية ، فأنك متحمل قسطك منها ، ولا ينفعك هذا التملص ، و الأحسن أن تساعدني و تنير أبحاثي بأفكارك و ملاحظاتك و أن تكف من هذا الشجار الذي لا فائدة فيه سوى ارضاء الخصوم .

فكرت مليا ثم قلت — ان قولك حق فلا سبيل الى التقهقر بعد الان .

قال — أكتب إذن !. .

قلت — ما ذا أكتب ؟

قال — الحرية ، العدالة ، الانسانية ، ثلاث كلمات سماوية معناها : الرحمة ، الشفقة ، السعادة البشرية . أتت بها الاديان لسعادة البشر ، لكن الانسان ، بما فطر عليه من الأنانية و حب الذات ، الانسان بما فطر عليه

من الشرور والاثام ، أبى الا ان يشوه معاني هذه الكلمات السامية وأبي الا ان يسئ تفسيرها حتى اصبحت وبالا ونكالا على الانسان فكم من جرائم ترتكب باسم العدالة ، وكم من مظالم باسم الحرية ، وكم من وحشية باسم الانسانية .

ثم قال — أرسل الله رسله بمبادئ العدالة والانسانية والحرية ولم يخل دين ولا كتاب سموي منها ، وجاء بعدهم فلاسفة ومصلحون حاولوا بث هذه المبادئ وحث الانسان على احترام حقوق أخيه الانسان ، ولكنه لم يزدد إلا طغيانا وظلما وجبروتا ، جاءت هذه المبادئ في عصور مختلفة وفى أمم مختلفة وبلدان مختلفة ، ولكنها لم تخرج عن أنات في صدور الفلاسفة ، ونفثات من أقلام الادباء ، وزفرات من افئدة رجال الاصلاح ، ومع ذلك فقد عذبوا من اجل تلك الافكار واصابتهم الوان العذاب والهوان ؛ فلم يكف الانسان أغتصاب حق أخيه بل يسوءه ان يسمى ظالما غاصبا .

قلت — لعل السائل يريد منك أن تحدثه عن عصره الذي يعيش فيه ولا يريد منك هذه الفلسفة الفارغة .

قال — قل عنها فارغة ان شئت لكنها الحقيقة ، الحقيقة المرة التي يجب ان يندي منها جبين الانسان خجلا ...

ثم قال — الحالة هي هي ، في جميع العصور وليس هناك عصر ظلمة

وعصر نور كما يقولون ، والانسان هو الانسان فى كل زمان ومكان .

وما علينا اليوم الا أن نقوم بجولة في الشارع ، والشارع أعظم معرض ، لنشاهد هذه الانسانية المعذبة فى شخصيات الضعفاء من ابنائها نشاهد غرائب البؤس ، والشقاء الذي جره الانسان على الانسان .

نرى الديموقراطية المزيفة والحقوق المغتصبة ، والمظالم الفظيعة ، في هذا القرن الذي سمى كذبا وزورا عصر الحرية والنور ، وما هو الا عصر الظلم والطغيان ، عصر الخداع والنفاق .

نرى انسانا حرم الحرية بانواعها يختنق من شدة الضغط لا يكاد يتنفس ، وآخر أعطى الحرية مضاعفة حتى وصلت الى حد الفوضى والعبث بمصالح الابرياء ؛ هذا شخص ملقى على قارعة الطريق يتضور جوعا في اسماله البالية يجلده البرد بسياطه المؤلمة ، وينهكه المرض بجرثومه الفتاك يمر به المتخومون من شدة الوان الاطعمة ، وهم في ملابسهم الصوفية الدافئة ، فلا يرونه ولا يلفت انظارهم ، لكنه لا يخفى على نظر البوليس الذي يحاول ان يطهر منه الشارع فيأخذ فى مطاردته من مكان الى مكان ؛ كأنه ليس من حقه البقاء على وجه هذه التربة التي خلق منها وفيها . ومع كل هذا تجدهم يتبجحون صباح مساء بالفاظ الحرية والعدالة والانسانية ، وما هي الا العبودية والجور والوحشية ؛ فلتنزع هذه الكلمات من القواميس ما دامت مدلولاتها

مفقودة بين البشر وفى عالم البشر .

قلت — صدقت يا صاحبي ، فهي الحقيقة .

قال — وتقع هذه المظالم بين البشر بالجملة وبالتفصيل

قلت — ابضاعة هي ؟

قال — نعم .. بضاعة الانسان ؛ يظلم الفرد اخاه ويغتصب حقه دون رحمة ولا شفقة ، ويظلم شعب بأكمله شعبا آخر ، ويغتصب حقوقه ويسترق حريته ، ولا يرتاح له بال حتى يراه غارقا في البؤس والشقاء . والويل لمن تحدثه نفسه فيشتكي من هذه المظالم او يسمي الاشياء باسمائها .

قلت — فى هذا القدر كفاية لا تضطرنا بارك الله فيك الى تسمية الاشياء باسمائها ، ولا تنسى إنني إنسان أحاسب وحدي على هذه الحقائق .

قال — نعم .. أعلم ذلك جيدا .

مع القارئ

ما كاد حمار الحكيم يسلم ويجلس حتى ابتدرته :

— واتعتك سوداء ! ...

قال — أعوذ بالله ... ما هذه التحية المبتكرة التي قابلتني بها ؟..

قلت — نتيجة آرائك الاخيرة فى المرأة والزواج !

قال — لما ذا ؟ الم تكن سديدة منطقية ؟..

قلت — لا أدري إذا ما كانت كذلك ، وانما أعلم أنها أثارت علينا قسما من الرجال والنساء على العموم ...

قال — من المعقول أن يثور ويتأثر الرجال لمتزوجون من غير جنسهم ومن المعقول أيضا أن تغضب وتسخط نساؤهم الاجنبيات ، ولكن المرأة العربية أي شيء أغضبها ؟.. فكان يجب أن تبتهج وتشكرنا لدفاعنا عن حياضها وذودنا عن حماها ...

قلت — لكنك لم تقتصر عن الدفاع عنها فحسب .

قال — وهل فعلت شيئا غير هذا ؟

قلت — فضحت للقراء من الرجال سرا من أسرارها الخطيرة .

قال—دعنا من فضلك ، لا تضيع وقتنا فى استنتاجاتك الغريبة..

قلت — على رسلك ، فلنتصفح إذن رسائل القراء ...

وأخذت أقرأ عليه بعض الرسائل التي تحتوي على سؤال أو اقتراح أو نقد أو شتم، أما رسائل التقدير والاعجاب فاننا نكتفي بتقديم شكرنا الجزيل لأصحابها على حسن ظنهم بنا ومؤازرتهم لنا .

قلت — هذه رسالة من سيدة فاضلة ترحب بقدومك الى الجزائر وتتمنى لك إقامة طيبة وتسألك عن أغرب ما سمعت وأغرب ما رأيت في بلادنا منذ حللت بها .

وقرأت عليه الرسالة بأكملها :

قال — ما رأيك ؟..

قلت — في سؤالها ؟..

قال — ما رأيك فى رسالتها ؟

قلت — إنني أخشى المرأة ولا أريد إن أبدي برأي فى أي شأن من شؤونها ... فما رأيك انت ؟

قال — فان كتابتها لا بأس بها من حيث اللغة والاسلوب ، وسؤالها يدل على تفكير نير .

قلت — احذر !. فانني اشتم من هذا السؤال انها تريد ان تزوج بك في مأزق حرج انتقاما منك ...

قال — لا ... دعك من سوء الظن بلا موجب ! ثم استغرق فى تفكير عميق كمن يبحث عن مسألة ضائعة في لجج افكاره المضطربة وهو يردد :

— أغرب ما سمعت ... أغرب ما رأيت ...

ثم قال — لماذا اذهب بعيدا ... فمنذ ايام فقط ، وكان ذلك يوم جمعة ، بينما كنت مارا في الشارع اتجول ، وإذا بي أسمع صوت شيخ ينطلق من مذياع فى مقهى ، مختلطا بغوغاء الجالسين وجلبة احجار (الدومنة) وهي تطرق بقوة على الموائد الخشبية ، ثم ارتفع صوت الشيخ فجأة وتغلب على ما سواه من الضجيج والجلبة فتبينته بوضوح وهو يقول :

— عن مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: كل الناس هلكى إلا العالمون ، وكل العالمين هلكى إلا العاملون ، وكل العاملين هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون فى خطر عظيم

فكان ذلك اغرب ما رأيت وما سمعت ...

— وهذه رسالة من سيد ، يقول بعد الديباجة :

... غير اني وإن كنت معجبا باراء الاستاذ حوحو في الأدب، اجده يسوغ لنفسه ان يخوض فيما يجلب اليه انتقاد بعض المطلعين على مقالاته ولست اعني بالانتقاد ذلك الذي يدفع بالكاتب في طريق البحث والتنقيب ، وإنما اعني ما توحيه العاطفة حين ينزل الكاتب نفسه منزلة

يدعي فيها أنه أفضل ممن اشتغل مكاريا ، او خفير اصطبلات .

ثم يقول الكاتب المحترم — هل ترى ان من يستظهرون على الايام بمهنة لا تراها انت شريفة هم احط خلق الله ؟

قال الحمار — واقعتك سوداء ، يا استاذ !...

قلت — دعنا من المزاح الثقيل فما جوابك على هذا ؟

حرك رأسه يمينا و شمالا ثم قال :

— ان هذا لا يعنيني فى شيء ، فاجبه انت ثم انك لا تنكر شرر الغضب الذي يتطاير من عينيك حينئذ .

قلت — دعنا من هذا التعريض ، هل تظن انك وجدت سبيلا للانتقام مني ؟

قال — لا ... وانما هو الحق .

قلت — انني متعب الجسم والفكر معا ولا طاقة لي على التفكير فساعدني على هذا الجواب !

قال — من فضلي !..

قلت — من فضلك و احسانك ...

قال — فاعلم اذن ، ان الانسان لا يكون منحطا بمهنته الوضيعة ، ولا يكون كذلك شريفا بمهنته الراقية ، فهناك فرق ما بين انحطاط الانسان وانحطاط مهنته ، و هناك فرق ايضا ما بين

شرف الانسان ورقي عمله ، فانك تجد شخصا منحطا خسيسا يشغل مهنة راقية ، و تجد شخصا شريف النفس والخلق يشغل مهنة منحطة فالحكم اذن ، على مهنة بالانحطاط ليس معناه الحكم على المشتغلين بها ... كما ان الحكم على أية صناعة بالرقي ، ليس معناه الحكم على مزاولها بالشرف .. فشرف الانسان في نفسيته و خلقه وفضله ، لا في المهنة التي يزاولها .. ورقي المهنة فيما تنتجه للمجتمع من الحاجيات المفيدة القيمة من جهة ، وفيما تدره على صاحبها من رقي المعيشة والمكانة الاجتماعية .

قلت — وعلى هذا ؟

قال — وعليه فانت لم تصم المكاريين وخفراء الاصطبلات بالانحطاط .

قلت — حاشا... بل انني اعتقد ان من بينهم من هو اشرف نفسا واكرم خلقا وامتن دينا من ارباب القصور والمناصب الراقية ...

قال — اذن ما سبب غضبك يومئذ ؟

قلت — وقاحتك حيث اردت ان تجعل مني سفيرا للحمير وخطيبا لأتان ..

قال بخبث — أحسنت ... لقد فتح الله عليك بالجواب ، وان كان على حسابي وحساب فصيلتي ، وكن مطمئنا فان ابناء الفصيلة

ابقاهم الله لا يعرفون الغضب ولا الانتقام .

قلت — إن ما يخشاه علي هذا السيد من غضب بعض المطلعين الذين ربما تجرح كتابتي عواطفهم ، فاني اشكره على عواطفه السامية نحوي ، وافيده اني اخشى شيئا واحدا وهو تجنب الحق وتجنب التصريح به ، واما ما اعتقده حقا فانني اقوله ولا ابالي بالعواطف التي يجرحها او يثيرها .

وهذه رسالة اخرى من شاب طالب في كلية يقول فيها :

— ان إعجابي بالحمار الكبير حتى انني اتمنى لو تمكنت من تقبيله من فمه ، وارجوك ان تسأله رأيه في شاب تغرب لطلب العلم وكرس شبابه للاستعداد لخدمة امته وبلاده يدرك الرسالة التي تغرب من اجلها، يسخر منه شاب آخر جعل همه التحصيل على الشهادة ليجعلها في اطار ذهبي جميل يزين به غرفة الاستقبال .

قال الحمار — نصيحتي لهذا الشاب (اذا كان حقا كما يصف نفسه يدرك الرسالة التي تغرب من اجلها) ان لا يلتفت لقول احد وان يسير قدما في سبيله ، يعمل ما يرضي ضميره ويعود على امته بالنفع ، وان لا ينتظر من الناس مدحا او شكرا او تقديرا ، بل يعود نفسه على تحمل القدح والنكران ، فالعالم عالم جحود ونكران ، لا عالم شكر وتقدير .

دخل حجرتي حمار الحكيم كالعاصفة دون إستئذان وما كاد يتخطى عتبة الباب حتى لمحت وراءه رجلا فارع الطول، شارد النظر، رتبت ملابسه ترتيبا مشوشا غريبا ؛ ولم ينتظر ابن الحمار إذني له او لصاحبه بالدخول بل ابتدره قائلا :

— تفضل ادخل !.

ولم ينتظر الرجل طويلا بل دخل على الفور ، واحتل مقعده في الحجرة !

قلت لحمار الحكيم : — من هذا السيد الذي معك ؟

— صاحبي .

—صاحبك ! ومتى كان لك اصحاب من البشر ؟

— انه ليس من البشر ..

وكان لجوابه مفعوله السريع في اعصابي ، فاضطربت وامتلكني شيء من الخوف وقلت له وانا أجهد نفسي لاخفاء اضطرابي :

— ليس من البشر ؟ تعني انه من الجن !؟ وفهم ابن الحمار

ارتباكي واضطرابي فأخذ يقهقه بصوته المزعج ثم قال :

— لا تخش ! . أعني أنه مجنون .

وقال صاحبه على الفور — نعم أنا مجنون .

— تشرفنا . . يا لها من صبحة ما بين حمار ومجنون .

قال الحمار :

— ثق انها ستكون اخصب ايامك انتاجا لأن صاحبي فيلسوف فى الجنون أو مجنون فى الفلسفة .

قلت :— او تظن انني سأثقل حديثه للقراء ؟! اما تكفيهم احاديثك البليدة حتى أتحفهم بحديث معنعن عن حمار عن مجنون ...

قال :

لست أدري اذا ما كان صاحبي هذا مجنونا حقا ؛ ولكن الذي اعلمه أن البشر اصطلحوا على ان ينعتوه بالمجنون وان ينعتوا امثاله ممن كثرت حقائقهم ، وتجلت صراحتهم ، وانعدم تملقهم وانمحى نفاقهم ، وبرز ذكاؤهم ، وكثر فهمهم ، واتقدت اذهانهم . واذا امعنت النظر فى هذه الصفات مستقلة ، وجدتها جديرة بكل عبقري كامل العقل والادراك ، صفات حميدة يرتضيها الانسان ويرتاح اليها ، ولكن الناس اصطلحوا على ان لا يروها مجتمعة في شخص الا قالوا عنه انه مجنون ، كما اصطلحوا على ان لا يصفوا بالعقل الا من

كان في بلادة الحمار — كما تقولون عنه — وغباوته ، ومكر الثعلب ونفاقه وحيلة الذئب وخداعه ، وعلينا ان نرضى بهذا الاصطلاح ولو كارهين وان نقبل بهذا الحكم ولو مرغمين ، لأن البشرية أجمعت رأيها على ذلك ، ومن يخالف إجماع البشرية أدخل في رمزة المجانين وأخرج من حظيرة العقلاء وحكم عليه بالحرمان من نعمة العقل .

وصاحبي هذا مجنون فخور بجنونه معتز به ، هذا الجنون الذي منحه من الحقوق ما لم يمنحه لغيره من العقلاء ، فهو يستطيع ان يسمي الخير خيرا ، والشر شرا دون ان يخشى لوم اللائم أو انتقاد الناقد ، وذلك لأنه مجنون .

وهو ينظر الى الأشياء نظرة حرة ، وأن يعرف الأشياء تعريفا صادقا بعيدا عن ضريبة العقل الثقيلة وما يفرضه على صاحبه من تجنب غضب فلان ، ومراعاة عواطف فلتان ؛ والحقيقة عنده سافرة مجردة من أثواب المصلحة والخوف ، شعار العاقل ودثاره ، وذلك لأنه مجنون والمجنون لايقدر مصلحته ولا يفكر في الخوف لأنهما يفرضان عليه الكذب والنفاق والملق والحسد والخداع وهذه أوصاف العقلاء من الناس ، حرمت عليه وهو مجنون ، لا يرتضيها لنفسه ولا ترتضيه لنفسها .

قلت — لماذا سماك الناس مجنونا ؟

فابتسم ثم قال :

— المسألة بسيطة جدا ، لأني مجنون ...

قلت — أعلم ذلك ، لكن ما هي مظاهر جنونك ؟

قال — فاليك مثالا بسيطا ، فالعين العوراء عندي هي عوراء لأن الله ارادها لحكمة يعلمها ؛ ولكنها عندكم ، أنتم تختلف باختلاف مكانة صاحبها وثروته وجاهه ، فهي عند الحقير المعدم عين عوراء ، وهي عند ذي المكانة والجاه عين كريمة .

قلت : لماذا هذا الفرق ؟

قال : لست ادري . اسأل العقلاء أما انا فمجنون ...

قلت للمجنون :

لماذا لا تتزوج ؟... وكنت اقصد في هذا السؤال أن أعرف فلسفته في الزواج ، لأني اعرف ان المجنون أعقل من أن يرتكب هذا الخطأ الفاحش ، ويضيف الى جنونه العذب جنونا مرا لا يطاق.

قال صاحبي المجنون :

والله ليس العجز المالي هو الذي منعني ، فانني اجد امرأة عاقلة ترضى بي رغم فقري وجنوني . وليس الزهد في النساء هو الذي حال بيني وبين الزواج ، فانا ، وان كنت مجنونا بشر ، لي ضعف

العاقل وشهواته ..

قلت :

اذن ، ما المانع من ان تنشئي عائلة ، وتنجب اولادا ؟

قال : منعني خوفي من ان انجب اولادا عقلاء ، فاشقى بعقلهم ويشقون بجنوني ، وتشقى والدتهم بنا جميعا ، فنعيش جميعا في شقاء وتعاسة .

قلت ما رأيك في المرأة ؟...

قال : المرأة مجموعة متناقضات ، قوة في ضعف ، كبرياء في ذل ، حب في بغض ، تقدم على الشر بخطوات ثابتة ، وتقدم على الخير بخطى مرتجفة . كلما عظم حبها للرجل ، زاد خطرها عليه ونقص تصديقها له ، وانعدمت ثقتها به ، وكثر خوفها منه .

اذا ما احسنت اليها ، اساءت اليك ، وتجبرت ؛ واذا ما اهنتها أحسنت اليك وخضعت . فاذا احببتك . فانما تحبك لنفسها ، ولهذا لا يدوم حبها ؛ واذا ابغضتك ، فانما تبغضك لنفسك . ولهذا بغضها لا يزول ؛ تحب نفسها الى حد العبادة ، وتضحي بكل شيء في سبيلها حتى بنفسها .

قلت — كيف يضحي الانسان بنفسه من أجل نفسه ؟.

قال — كلكم تفعلون ذلك : ولا تشعرون .

قلت ـ كيف ذلك ؟

قال ـ كل الرذائل والجرائم التي يرتكبها العقلاء والتي تؤدى بهم إلى الانهيار المادى والمعنوى ، إنما يرتكبونها من أجل أنفسهم ، فهم يضحون بأنفسهم من أجل أنفسهم .

قلت ـ إنها فلسفة مجانين !

قال ـ نعم ! ومتى ادعيت لك أني عاقل ؟

قلت له ـ إنك تتكلم عن المرأة كقرينة ، لكنها كأم لاينطبق عليها هذا الحكم .

قال ـ أتكلم عن المرأة من حيث هي ، من حواء الى آخر امراة توجد فوق هذه البسيطة ؛ فحبها لقرينها ، أو حبها لابنها ، لا يختلف فكلاهما ممزوج بالغيرة والانانية وحب الذات ؛ فقلما تجد أماً تضحي بسعادتها ، بل بأنانيتها من اجل راحة ابنها و سعادته ، بل تجدها تفرض على هذا الابن ان يضحي بهنائه و سعادته من اجل سعادتها التي كلها أنانية ، و حبها الذي كله كبرياء .

ثم قال : نعم ! المرأة كلها شر ...

قلت : شر ، ولكن لا بد منه .

قال :

ـ لا بد منه للعقلاء . اما ، المجانين ففي راحة ..

قلت : نعم ! في راحة واي راحة .

ثم قال صديقي المجنون :

ـ الم تدر أن الصينيين لما اخذوا في اختراع الصور التي تدل على المعاني ، لم يجدوا صورة تدل على الاتعاب المضنية الا صورة واحدة ، فهي صورة امرأتين تحت سقف واحد .

ثم أرسل ضحكة عالية كلها سخرية بهذا العالم العاقل وانصرف دون ان يودع

قال الحمار : ما قولك ؟ اليست احاديثه ممتعة ...

قلت :ـ نعم أنها لكذلك ..

أحزابنا السياسية

جاءني حمار الحكيم مبكرا هذا الصباح ، فاوجست في نفسي خيفة من التبكير ، لأنه ما جاءني مرة مبكرا الا واحدث لي مشاكل وقلاقل ؛ ثم قلت في نفسي لعل الحمار رأى رؤيا ازعجته فجاء مبكرا يريد تفسيرها .. فابتدرته قائلا :

— فاني لا املك ابن سرين يا صاحبي ولم اشتغل يوما بتفسير أحلام البشر ، فضلا عن أحلام الحمير ، فلا تتعب نفسك ولا تقصص علي رؤياك .

قال — دعك من هذا المزاح الثقيل في هذا الصباح الباكر فاني جئتك في مسألة مهمة شغلت بالي الليلة البارحة حتى انني لم أتذوق طعم الكرى .

قلت — خيرا إن شاء الله ... امسألة خاصة ؟

قال — لا !.. مسألة عامة ككل المسائل التي نتعرض لها عادة بالبحث والتحليل .

قلت — هذه فاتحة خير .. اصبحت تهتم بالمسائل العامة الى درجة أنك تقضي ليلك ساهرا مفكرا ، فانك تخطو خطوات مباركة في طريقك الى الزعامة .

قال — عجبا !... وهذه المسائل والمشاكل التي تتعرض لها دائما في أبحاثك ، ألم تكن وليدة اهتمامك وتفكيرك ؟

قلت — من دون شك انها وليدة اهتمام وتفكير ، لكنه اهتمام هادىء متزن ؛ لا اهتمام متقد مضطرب ، اهتمام الكاتب الذى يطل على المجتمع من ثقب بعيد ، فيرى خيره وشره عاريا عن الطلاء الزائف ، بعيدا عن التعصب والاغراض ، فينظر اليها نظرة هادئة ويعالجها علاجا متزنا ويبحثها بحثا منطقيا صادقا .

ثم قلت — وبعد فما هي مسألتك الهامة التي حيرت افكارك وأبعدت عن جفنك لذة الكرى ؟

قال — احزابنا السياسية ؟

قلت — لا ...لا...لا... من فضلك ، كل شيء ولا هذه المسألة ، دعني رعاك الله من السياسة والحزبية .

قال — لكن المسألة هامة جدا تتطلب العناية والاهتمام

قلت — لتكن هامة ، ولكني لا أخوض معك فيها فاني أعرف الجماعة حديدي المزاج ، ثائري الاعصاب ، لا يتحملون النقد

يدعون العصمة ، ولا أريد بأي وجه من الوجوه ان اشتبك معهم في خصام ، لا طائل تحته ونقاش « بزنطي » لا فائدة فيه .

قال — لكن . . لماذا لا يتحملون النفد ؟

قلت — لأنهم يرون فيه معول تهديم لا دعامة أصلاح .

قال — لكنك تخشى أي شيء ، وهم لا وجود لهم اليوم ؟ فاننا لا نرى لهم حركة تدل على وجودهم ، ولا نشاطا يدل على حيويتهم .

قلت — ماذا تطلب منهم ان يعملوا في الوقت الحاضر ؟ فالانتخابات لازالت بعيدة .

قال — أوليس لهم عمل غير جعجعة الانتخابات ؟ فسياستهم اذن ، سياسة انتخاب وحسب ؟ .

قلت — لم اقل ذلك ... من فضلك ! .. فقد قلته مرة فثارت علي ثائرتهم ، وإنى لا أريد ان اشتبك معهم في نقاش لا يعتمد على المنطق ولا يستند الى الحقيقة ، ولا أريد كذلك أن التحم معهم في عراك هو أشبه بعراك الانتخاب يعتمد على الجعجعة والتهويل والمغالطة ، فاخرج منه مدحورا .

قال — ما لنا وكل هذا !.. فلماذا لا نوجه لهم نداء صادقا ندعوهم فيه الى النشاط والعمل المجدي المثمر ؟

قلت — ما ذا تعني بالعمل المجدي ؟

قال — بان يوجهوا بعض جهودهم الى رفع مستوى الأمة الثقافي مثلا .

قلت — سيجيبونك بان جمعية العلماء قائمة بذلك فلا داعي الى مزاحمتها .

قال — لكن جمعية العلماء في حاجة ماسة الى من يساعدها في مهمتها التثقيفية ، فان العبء الذي تحمله على كاهلها ثقيل ؛ ثم اذا كان ولا بد أن ينظروا الى هذه المسألة بعين السياسة ، وان يسموا المساعدة مزاحمة ، فعليهم ان يؤسسوا حركات مستقلة لتثقيف الشباب ورفع مستواه ؛ فاني أعتقد ، لو أنهم انشاءوا بعض المعاهد الصناعية ، لتعلم الشباب بعض المهن لأسدوا خدمة جليلة الى الأمة والبلاد ، حيث يشغلون الكثير من هذه الأيدي العاطلة التي تملأ المقاهي والملاهي صباح مساء .

قلت — نعم إنها الحقيقة ولكن من يسمع ومن يعي ؟!

قال — دعك من هذا التشاؤم ، واقلع منظارك الاسود هذه المرة على الأقل وضم صوتك الى صوتي ودعنا نرفعه نداء عاليا يدوي صداه في جميع أنحاء القطر .

قلت — لو فعلنا ذلك على خشبة المسرح لقدمنا للنظارة أروع ملهاة

قال — كفى من المزاح ! فاني أتكلم جديا ! كيف تسمي عملنا هذا ملهاة؟

قلت — نعم ... فانه كذلك ، صوت خافت كصوتي يصحبه صوت حمار مزعج يرتفعان معا ليعلما جبابرة السياسة ما ذا يجب عليهم أن يعملوا ... فاني لا أريد يا صاحبي ان أكون سخرية الناس و هزءهم ... فأنت حمار لا يهمك من سخرية الناس شيء ، اما أنا فاني أختلف عنك كثيرا .

قال — لما ذا لا تكون حمارا مثلي و تتخلص من كابوس هذه التقاليد البشرية التي تعوقكم ؟

قلت — تشتمني هكذا في وجهي دون خجل ولا حياء ؟ ! ...

قال — إني لم أقصد ذلك ، و ظننت أنه يسرك ...

قلت — تظن انه يسرني أن أكون حمارا ؟ فهل يسرك أنت ان تكون انسانا ؟

قال صارخا — أعوذ بالله ! ..لا. .لا.. لا... من فضلك ياصاحبي.

قلت — دعنا إذن من أحاديث السياسة ولا تعد إليها ثانية ولنتعمق في مجتمعنا فانه مفعم بالمسائل الهامة والمشاكل العويصة الجديرة بالعناية و الاهتمام.

قال — صدقت .

قلت — بورك فيك من حمار عزيز .

الأدب العربي

قال لي حمار الحكيم :

— ما رأيك في العودة إلى الحديث عن الادب ؟

قلت — ألا تكفني المشاكل التي أثرتها علي في هذا الموضوع حتى الان ؟...

قال — إني لاأقصد الأدب الجزائري ، وإنما أقصد الأدب العربي على العموم ...

قلت — إذن تريدها مشكلة عامة !..

قال — فلتكن !

قلت — يبدو لي أن الأدب العربي ينقصه التوجيه ،

قال — أي لون من التوجيه تريد ؟

قلت — لايسع المتكلم ، حينما يريد أن يتكلم عن الأدب العربي إلا أن ينتقل إلى الشرق العربي ؛ حيث يوجد الأدب و يوجد الانتاج حيث توجد المذاهب الأدبية القديمة والحديثة على السواء ، يوجد الشعر القديم و هواته ، و يوجد الشعر الحديث و عشاقه ، يوجد لمدارس

النقد المختلفة رجال ، ولمدارس القصة المتنوعة رجال .

إلى الشرق العربي حيث توجد نهضة أدبية زاخرة بالحركة والحيوية وصراع عنيف محتدم ما بين مذاهب الأدب المختلفة ، وألوانه المتباينة زادت هذه الحركة حدة ، وزادتها نشاطا .

أما الأدب عندنا فقد أبديت فيه رأيي ولا زلت ، أكرر أنه عبارة عن بذور صالحة كامنة في تربة صالحة تحتاج إلى الري والعناية لتنبت وتترعرع وتثمر.

والأدب العربي في الشرق — رغم تقدمه وكثرة إنتاجه — لم يرتكز — بعد — على أسس ثابتة متينة ، بل تسيره ثورة فكرية عنيفة والثورة في كل شيء تسير بدون عقل ولا منطق ، تكتسح كل شيء ؛ الصالح والطالح على السواء ، تنقض اليوم ما بنته بالأمس، وتثبت في المساء ما نقته في الصباح ، وهكذا تسير في جنون ، تبني تارة وتهدم أخرى .

— هل التوجيه هو الذي ينقص الأدب العربي ؟ أم هي الثورة في كل شيء ، تسير بعنف وجنون ؟

— سواء أكانت الأولى أم كانت الثانية ، فاننا نشعر على كل حال ، أن الأدب يسير في اضطراب وثورة ينقصه كثير من التوجيه وينقصه الارتكاز ، فهذا شاعر تخرج من مدارس الهندسة ، وهذا كاتب

خلق للأدب ولم يخلق للقضاء فرمى بمطرف القضاء بعيدا وتصدى للأدب القصصي فعالجه ونبغ فيه ، ولكن بعد ماسلخ جزء كبيرا من ربيع حياته في دراسة الحقوق دون فائدة لو قضاها في الاداب لكان شأنه اليوم غير شأنه الحالي .

فهل نقصه التوجيه ؟ ام هي الثورة الأدبية جرفته بتيارها العارم ؟

اما المرحوم علي محمود طه المهندس الشاعر المبدع ولا (مرتين) الشرق بحق وجدارة ، كما لقبه بذلك كبار المستشرقين في أوروبا ، فبعد ما أتم دراسته العامة وقف محتارا لم يدر أين يتوجه ؟ وأي سبيل يسلك ، والحركة الفكرية في شغل عنه في ثورتها العنيفة تبني وتهدم ، فاختار التلميذ الهندسة المعمارية والتحق بكليتها وذهب يدرسها ويسهر الليالي في رسم التصميمات والخرائط وتحصل الشاب على شهادته وكلف المهندس الجديد بوضع تصميم لمبنى جميل في حديقة فيلانة ؛ وحمل المهندس اوراقه وادواته وخرج لعمله ولكنه عاد يحمل قصيدة رائعة تزخر بالحياة والجمال ، لا تصميما جافا يحتوي على خطوط مستقيمة وأخرى منحنية .

اما الطبيب ابو شادي ، فقد قضى سنين طوالا وهو يدرس الطب ويحفظ امراضه العفنة وغير العفنة ، ويدرس الجراثوم وتاريخه ويضع

قصصي تخرج من كلية الحقوق ، وهذا صحفي قضى حياته الدراسية في كلية الشريعة،وهذا فقيه يقرض الشعر، وهذا أديب يتولى الافتاء والامامة.

— هذه مجرد نظرية ، تنقصها الحجة والدليل .

— اني لا استطيع تدعيم هذه النظرية بالحجج القاطعة والأدلة المنطقية ، فان ذلك من الصعوبة بمكان ، ولكني سالجأ الى ذكر عدة أمثلة أعتقد انها توضح هذه النظرية وتدعمها بعض الشيء

فهذا صاحبك توفيق الحكيم الكاتب الشهير وصاحب المذهب الخاص في أدب القصة وأدب النقد ، ولد في عائلة مصرية كريمة عريقة ، انتهى من دراسته الأولية والتحق با (لسربون) في باريس ليدرس الحقوق استعدادا لتولي منصب راق في القضاء تحقيقا لرغبة ذويه .

وانتهى توفيق الحكيم من دراسة الحقوق وتولي منصب نائب في القضاء ، وأرسل النائب الجديد الي الريف المصري ليبحث ويحقق جريمة خطيرة ، وكان في استطاعة القاضي الجديد أن يثبت مقدرته فى فنه ، ويظهر استعداده وجدارته ولكنه عاد من تحقيقه لا يحمل تقريرا قضائيا كما طلب منه ، وانما يحمل قصة رائعة ، قصة كانت درة جديدة فى تاج الادب العربي الحديث ، وهي : « يوميات نائب في الأرياف » ومنذ ذلك اليوم أدرك توفيق الحكيم أنه

الجداول لفصائله ويقيد ملا حظاته عن توالده ، وأحرز بعد الجهد والنصب على شهادة الطب وفتح الطبيب الجديد عيادته ، ونشرت الصحف والمجلات الاعلانات الضخمة عن قدرته الخارقة في معالجة شتى الأمراض .

وذات صباح وجد الطبيب عيادته مكتظة بالمرضى فتركهم مع خادمه ودخل الى مكتبه وطال انتظار العواد فثار قلقهم وكثر ضجيجهم ؛ والطبيب المداوي في شغل عنهم ، واخيرا خرج اليهم وهو يصيح :

لقد وجدت ... لقد وجدت ...

وتساءل الناس ، ماذا وجد ؟ دواء جديدا ؟ مرهم النسيان ؟... بلسم الشباب ؟... لقاح السرطان ؟... واخيرا سأله خادمه الأمين :

— ماذا وجدت يا سيدي ؟

— وجدت ابولو ... ابولو ... اله الشعر ...

قال الحمار — يسألها من لقيه :

— ومنذ ذلك اليوم تحولت عيادة الطبيب ابى شادي الى إدارة مجلة (ابولو) الشعرية وتحول الطبيب الى شاعر يعالج القوافي ، ولا ادري... هل خلق شاعرا — ولكنه خانه التوفيق وفقد التوجيه فدرس الطب ليشتغل بالشعر ، ام هي الثورة الفكرية التهمته فيما التهمت ؟...

ودرس الجارم الأدب واشتغل بالقريض ، وأعتقد انه لو تصدى للفقه ودراسة الاصول لكان اليوم حجة الله البالغة في الشريعة واصول الدين .

وهذا القصيمي رجل الدين ، الحنبلي الشديد ألف كتابه الصراع بين الوثنية والاسلام ، وهو كتاب مفعم بالاراء الدينية المتينة ، وكتب رسالة في الرد على « حياة محمد » للدكتور هيكل أخذ عليه بعض الهنات البسيطة عدها كفرا والحادا ، وبعد سنوات قليلة من ذلك يخرج الينا كتابه الجديد « هذه الاغلال » يسمي الدين أغلالا يشل حركة التقدم والرقي ويدعو إلى التخلص من هذه الاغلال ، وإذا بهيكل فقيه متزمت بالنسبة إليه ، وهكذا يهدم القصيمي اليوم كل مابناه بالامس بضربة واحدة من قلمه الصارم .

وهذا العقاد يكتب بالامس قصته : (ساره) ويهوي اليوم بمعوله الحاد على قصة ساره وعلى ادب القصة كله في كتابه (في بيتي)

وفي استطاعتي ان استرسل في ذكر الكثير من هذه الامثلة ولكنه يبدو لي ان هذا القدر كاف ليثبت لك ان الحركة الادبية اليوم في الشرق العربي تسير خاضعة لتاثير ثورة فكرية عنيفة كالسيل العارم ، تسير دون قيادة ولا توجيه وهي الى حد الان كثيرة الهدم قليلة البناء . تقوض في يوم مالنشأته في سنين .

وهكذا الى ان يستتب الامن وتطمئن النفوس وترتكز الاراء وتتوطد القيادة ، فيبدو حينذاك الانتاج المركز المفيد ، وتخلق حركة البناء الثابت ، والانشاء المجدي .

— لعل ذلك اليوم قريب؟

— لا ادري ، لكنه آت لامحالة .

واستغرق حمار الحكيم في تفكير عميق مدة من الزمن ثم قال :

— حقاً ، إن التوجيه هو كل شيء في كل شيء .

فانا حمار ابن حمار ، لو لم يخني التوجيه لكنت اليوم كابناء الفصيلة أحمل الاحجار وأعيش في سعادة ، ولكن قلة التوجيه تركتني أشتغل بالمجتمع الانساني وأغرق في مشاكله العويصة الملتوية .

قلت — إن خان التوجيه ابناء آدم فانه لم يخنك على كل حال .

— فهل تظن ذلك ؟

قلت — هي الحقيقة يا صديقي .

السعادة !

قال لي الحمار ذات يوم ؛ وقد زارني مبكرا تبدو على محياه الحميري علامات السرور و الغبطة :

— ماقولك فى السعادة ؟... هل هي حقيقة موجودة ؟

— و هل انت سعيد ؟ . .

— احس بنفسي كذلك ولا ادري ،

قلت — قال هيجو : « ... هل تريد ؟ لااقول ان تكون سعيدا فستعلمك الايام ان ذلك لايتاح لاحد في هذه الحياة ، ولكنني اقول ؛ هل تريد الا تكون تعسا ؟ فاذا شئت ذلك فعليك بامرين غاية فى السهولة احبب و اعمل ... » .

— إنك تعيش فى ازمة نفسانية اثرت عليك !

— لا انكر انني اعيش فى حياة فكرية مضطربة مبعثها حياة العزلة التي أحياها حيث لاصديق ولا رفيق ، فانني انظر الى الحياة بمنظار اسود قاتم فاراها حالكة السواد كلها شقاق و نفاق و بؤس و شقاء ، كفاح ونضال في سبيل شبيء و همي لا وجود له يسمونه السعادة ..

إنني اريد ان اكذب على نفسي و اكذب على الناس فاتمنى لنفسي ولهم السعادة مع أنني اعتقد ان لا سعادة فى هذه الدنيا ، وهل لزام علي ان اتبع سنة الناس فى الايهام و الكذب ؟ فذلك ما لا بد منه .

يقضي المرء حياته كلها بين الألم والسرور ، بين العسر واليسر بين الضحك والبكاء ، بين النشاط والكسل ، بين الصحة و المرض ولكنه تعس شقي في جميع حالاته لا يتذوق السعادة ولا يتنسم عبيرها ، يبحث عنها فى الثروة الطائلة فلا يعثر لها على اثر ، و يخالها فى الأهل و الأولاد فلا يهتدي اليها ، ويحسبها فى الجاه الطويل العريض فلا يجد سوى المتاعب والمشاق ، ويظنها فى ضروب المعرفة و تحت ظلال العقل فلا يجني سوى الالم و البؤس .

— اذن ، فلا وجود للسعادة !..

— فهي لفظ في طيات الكتب يحددها العلماء و يمعن الفلاسفة في بحثها ، و هى كلمة في افواه الناس ينعت بها كل واحد غيره و ينسبها هذا لذلك ؛ فهي لحن يتغنى به الشاعر فى قريضه، ومعنى يحلي به الكاتب صحائفه ، تجدها فى كل مكان وفى كل بيئة وفي كل زمان ، حتى اذا ما بحثت عنها و حاولت التعرف اليها او استجلاء حقيقتها و جدتها خيالا لم يتذوق طعمه متذوق و سرابا لم يدرك منهله صاد .

فهذا ثري تكدست فى خزائنه اكوام الفضة و الذهب

وضاقت رحاب قصوره بمختلف الخدم والحشم تجده مع هذا وذاك يرزح تحت عبء الشقاء لا يهنا بمنام ولا يسعد بطعام، أشقاه شرف ضائع، أو عزيز غائب، أو حبيب خائن؛ وهذا شاب متوسط الثروة مستور الحال متوفر الصحة، حسب الحب رياضا مزدهرة وظن السعادة في خمائلها فراح يقطف ما حسبه زهرة السعادة واذا به يجد هذا الروض جحيما لا يطاق واذا بالزهرة التى اراد قطفها جمرة ملتهبة كوته بنارها فغدا يتجرع كؤوس الآلام مترعة .

هذا عليل أعياه مرضه ، وهذا فقير أضناه عوزه وفقره ، وهذا عامل يشكو من كده المتواصل وعمله المضني ، وهذا عاطل يشكو خموله ويتألم من حظه العاثر ، وهذا عقيم يتمنى طفلا يزين داره ويجعله مصدر عطفه ومحط آماله فلا يحضى به فهو بائس متألم لذلك ، وهذا جاره متألم لكثرة نسله واولاده ، فيلجأ الى العقاقير فلا تجديه نفعا ؛ هذا عزب يرى السعادة فى حياة المتزوجين فيغبطهم ويتمنى حياتهم فى مرارة الحرمان ، وهذا متزوج تبدو له السعادة في حياة العزاب ، فيحسدهم في مرارة ، مرارة المغلوب على أمره .

فالمريض يرى السعادة تاجا على رؤوس الأصحاء ، والمفلس الخالي الوفاض يراها فى الجيوب المفعمة بالذهب والفضة ، والاشيب الهرم يراها بين الشباب .

— ما أغرب الوان هذه الحياة عندكم وما أكثر ضروب الآلم والشقاء فيها .

— هي حكمة الله ياصديقي، هذا يشقى بعقمه وهذا يشقى بنسله هذا يشقى بعقله وهذا يشقى بجهله ، هذا عامل حر يرى السعادة فى دنيا الوظيفة والسلطة ، وهذا موظف مقيد يراها فى عالم الاعمال الحرة وهذا مقيم ببلاده وموطن ميلاده يراها في الاغتراب عنها ، وهذا غريب عن موطنه يراها في العودة اليه :

كل يبحث عن السعادة فلا يهتدي اليها وهي في فلكها العالي بعيدة عن هذه الدنيا ؛ دنيا الشر والاثام والبؤس والالام .

كل الناس في ألم وهم تعتريهم حالات من الهدو عابرة ، وتمر بهم لحظات من الخير قصيرة ، ينسون فيها همومهم وشجونهم ويظنون أن تلك هي السعادة ويخالون أنفسهم سعداء حتى إذا ما انتبهوا من غفوتهم صدمهم الواقع المر ببؤسه وهمومه فيعيد الانسان الشقي الكرة من جديد مواصلا الكفاح والكد يبحث عن السعادة وهو يركض فى دائرة لا بداية لها ولا نهاية ؛ حتى إذا ما أعياه الجد خر صريعا فى حسرة وألم .

إن الانسان مسكين بائس ! يفنى في طلب السعادة ويتفاني في حب هذه الحياة والتشبث باذيالها ، أيها الانسان : إنك لاترى السعادة

ولا تذوق لها طعما ما دمت تحمل في دماغك هذا العقل القصير المرامي وتحمل بين جنبيك هذا القلب الخفاق ذا الأهواء المتقلبة والمطامع المتشعبة .

لا ينبغي للانسان أن يحسد أخاه على السعادة فانه يحسده بدوره عليها ، وكلاهما بائس شقي ، وما التحاسد عليها إلا ضرب من الشقاء فرضته هذه السعادة علينا ، إمعانا فى السخرية والعبث ، السعادة فى إرضاء النفس والنفس لا يرضيها شيء ولا يشبع مطامعها شيء .

لاينبغي ان نبحث عن السعادة فهي دنيا خيال وعالم اشباح ، وانما نحاول تخفيف الامنا ماستطعنا ؛ هذه الالام التي فرضت علينا ضريبة هذا العقل الذى نشقى به وجزاء هذا القلب الذى نتالم به .

لنحاول أن نكون اقل شقاء ما امكننا ، فان السعادة فى دنيا المجانين ودنيا الأطفال حيث لا عقل ولا قلب ولا مطمع .

قال الحمار — تقصد في دنيا البهم ؟

قلت — نعم ! في دنيا البهم يا صاحبي ..

— فالحمد لله الذى خلقني حمارا سعيدا ولم يخلقني إنسانا شقيا .

علم التربية ....

قال لي حمار الحكيم — اشتكى لي أحد المعلمين بالمدارس الاهلية ركود أذهان بعض طلابه وعجزهم عن الفهم والتفكير فى المسائل العلمية ، وانصراف المجتهدين منهم عن الفهم إلى الاستظهار ينشدون فيه ضالتهم .

وقال لي هذا المعلم — « إنك تجدهم وكأنهم نوموا تنويما مغنطيسياً ، يحملقون في ، ذاهلين وأنا أحاول إفهامهم دون جدوى حتى إذا ما انتبهت صاحوا في وجهي : أنحفظ هذا عن ظهر قلب ؟ .. تسأل الواحد منهم وكأنك تخاطب تمثالا حجرياً لا روح متوقدة فيه ولا فكرا نيرا ، يجيبك على الفور — وهو لا يعي ما يقول — بدون تفكر ولا تدبر ، يعول على الحافظة والمصادفة علهما تقودانه الى هدف الحقيقة ... اما الفكر والعقل والذهن فلا يعولون عليها ولا يحسنون تسخيرها مطلقا » .

قال حمار الحكيم — وذهب المعلم المحترم يعدد الأمثلة تلو الأمثلة وادركت ما يعانيه هذا (الزميل) من الألم النفساني في

سبيل تلامذته الذين يجهد نفسه في تربية أفكارهم و تمرين أذهانهم على استخدامها فى الفهم و الادراك ، و استعمالها في حل المشاكل و استنتاج المسائل .

قال حمار الحكيم — و أدركت الصعوبة التى يجدها في مهمته الشاقة و لمست الطريق الشائك الذى يسلكه لغرضه النبيل حيث إن التلميذ لا يعرف غير الحفظ ، و الحفظ عنده هو الوسيلة الوحيدة للتعلم ، اما الملكة ، أما الذهن ، اما الفكر فهذه القوى تكاد تكون عاطلة عن العمل عند أغلب الطلبة .

قلت — و بعد فما أنت فاعل ؟

قال — درست المسألة دراسة خبير و اهتديت الى الداء و الدواء.

قلت — اتق الله في نفسك لا تزج بها في خضم لا تستطيع عبوره فان فن التربية فن عويص له رجاله وفيهم الحداد الذين لا يسمحون لك باقل هفوة و يحاسبونك عليها حسابا عسيرا .

قال — انك تبالغ فى تقدير هؤلاء الناس و سوف يتبين لك أنه فى استطاعتي معالجة هذا المشكل علاجا عقليا منطقيا من دون أن التجىء الى ذكر تلك الكلمات المألوفة التى يلوكونها فى كل بحث من بحوثهم — بيداقوجي ، بسيكولوجي تعليموجي ، تربيوجي ، أيساغوجي ..

قلت — و أي شيء (تعليموجي و تربيوجي و إيساغوجي منه ؟)

قال — يعني فن التعليم و التربية فى اصطلاحات علم النفس .

قلت — فانني لم أسمع بهما طيلة عمري !

قال — و هل أنت فى حاجة إلى عمر طويل للسماع بهما ؟ فان لغتهم كلغة الاتراك ؛ ياخذون الكلمة العربية و يزيدون عليها (لرى) فيقولون مدرسة لرى ، معلم لرى ؛ و هؤلاء ياخذون الكلمة و يزيدون عليها (جى) .

قلت — أراك أصبحت علامة فى لغات الشرق و الغرب .

قال — لا ... أنا الان في علم التربية لا في علوم اللغة ، لا تحاول أن تغير مجرى الحديث و تصرفني عن المقصود .

قلت — على رسلك . فهات ما عندك إذن وأمرنا لله .

قال — ابتدأت أولا بدراسة برامج السنين الماضية التي اجتازها هؤلاء الطلاب ، و سرعان ما تبين لى السر و انكشفت لي الحقيقة ؛ و ذلك أني وجدتهم قد أرهقوا بحفظ مواد عديدة لا تدركها عقولهم الصغيرة ، و لا تهضمها أفكارهم الفتية ، يحفظون بدون فهم فيتعودون على الاستظهار ، و قوى الفهم و التفكير عاطلة فيهم ، لا تتغذى و لا تنمو حتى إذا ما كبر الطالب اصبح بليدا عديم الفهم و الادراك ، يصعب على المعلم علاجه و هو في سنواته الأخيرة ، سنوات استخدام قواه العقلية

التي ينبغي تربيتها و تمرينها و تغذيتها فى ايامه الأولى .

والطفل ـ كما لا يخفى ـ يحتاج في مرحلته الأولى إلى التربية الصرفة ؛ اعني تربية عقله .

قلت — فاهم يا استاذ ! استمر في بحثك .

قال — وانه لا يحتاج إلى التعليم بقدر ما يحتاج إلى تربية فكره و تمرين ذهنه على فهم المسائل البسيطة وهضمها واستنتاج زبدها وفوائدها.

فالاستظهار بدون فهم في المراحل الأولى هو العلة الوحيدة والداء العضال الذى يضر بالتلاميذ .

وذلك لأن الاستظهار بدون فهم يولد فى التلاميذ اعتياد التكلم بدون تفكير، فيعمى الذهن ويفلج الفكر ، فاذا ثابر الانسان خلال سنين عديدة على الاستظهار بدون فهم وعلى التكلم بدون فكر يضيع بالتدريج الرابطة التي تربط الأفكار بالكلمات؛ تلك الرابطة التي لابد من وجودها بين الكلام والعقل ، فهي تضعف و تتلاشى شيئا فشيئا إلى أن تنقطع كل الانقطاع ، و تاخذ الكلمات ـ عندئذ ـ تمر فى الذهن و تخرج من الفهم من دون أن توقظ فكرا ما ، أو تولد ملاحظة ما .

قلت — و بعد ؟

قال — و بعد فعلى المشتغلين بالتعليم أن لا يرهقوا صغار التلاميذ

بالاستظهار دون فهم ؛ و أن يوجهوا عنايتهم الى تربية قواهم العقلية و تقوية مداركهم .

ثم قال — فما قولك فهل وفقت ؟

قلت — لست أدري ياصاحبي ، فانا لا أفهم فى هذا الفن شيئا وإنما يبدو لى أن كلامك معقول ، وقد يكون بحثك صحيحا ولكنه لا يحتوي على أسلوب علماء التربية ولغتهم ؛ واذا ثارت عليك ثائرتهم فسوف تتلقى زوبعتها وحدك .

قال — إنك تبالغ دائما !.. و هل لدينا علماء فى التربية ؟... فكلنا تلامذة فى هذا الفن ، وإنما يمتاز بعضنا عن بعض بالتجارب والمطالعات لا غير .

قلت — هذا صحيح .

بريد الحمار

ما كاد حمار الحكيم يعود للعمل من جديد حتى انهالت عليه الرسائل من كل حدب وصوب ، مما يدل على اعجاب ، القراء به ، وتعلقهم بهذا الحمار العجيب الذي استطاع ان يحتل مكانته فى قلوب القراء فى مدة يسير ، الشيء الذي عجزت عن إحرازه أنا ، ابن آدم في سنين عديدة وفي أعمال صحفية متنوعة ، فى الشرق و الغرب .

قال لي حمار الحكيم — لأنك متأثر باخلاق بني بجدتك فلا تستطيع ان تعرض الحقيقة الصريحة مجردة من اثواب التزييف والتلبيس.

قلت — لعل ذلك صحيح ، فما أكثر ما نحب الحقيقة ، و ما اعجزنا عن التصريح بها .

ثم قلت — على كل حال فاني احسدك على مكانتك .

قال — وهذا من ضعف البشر و رذائلهم . فانا لا اشعر بهذه المكانة التي تحسدني عليها و إنما اشعر بلذة في التصريح ببعض الحقائق .

و لو طلقت لي العنان و لم تقيدني بخوفك و جبنك ، لرأيت مني العجائب .

قلت — لا ... لا ... من فضلك فان في هذا القدر كفاية .

قال — لكنني اعلم حقائق كثيرة بودي معالجتها .

قلت — اجعل نصب عينيك ياصاحبي ! فلسفتنا ، نحن البشر «ليس كل ما يعلم يقال»

قال — نعم ... هذا هو داؤكم الوحيد .

ثم أخذ يتصفح بريده الضخم فخورا و أنا انظر اليه فى حسرة ، فلم يذكر اسمي في هذه الرسائل العديدة ، الا نادرا حيث يتكرم بعض المراسلين بمنحي تحية هزيلة فاتقبلها شاكرا و أمرى لله ...

— وبعد فهذه رسالة جاء فيها بعد الديباجة :

— لقد تعرضتم الى مشكلة الزواج بالاجنبيات و نسيتم فيما اظن مشكلة الثقافة التى هي السبب الأول في هذا الباب . و اذكر ان الشيخ المرحوم عبد الحميد بن باديس كتب في هذا الموضوع في « الشهاب » وعذرهم على تزوجهم باجنبيات لأنهن مثقفات وكثير من المثقفين لا يقدرون على العيش بجانب الجاهلات وفي بلادنا كلهم من هذا النوع ، الى ان يقول — كيف يعيش المثقف ثقافة شرقية او غربية مع من لا تفرق بين الألف و العصا :

وفي آخر رسالته ينتقل الى مشكلة أخرى فيسألنا :

و هذا الادبار عن الزواج الذى فشى في سائر المدن بعد النهضة

الحديثة ، فهل سببه الثقافة ام غلاء المهور ؟

— يرى السيد أن مشكلة ثقافة المرأة الجزائرية عائق كبير لتزوج المثقفين من بنات جنسهم ، ويرى أن تأخر المرأة الجزائرية في ميدان الثقافة عذر للطبقة المثقفة بالتزوج من الاجنبيات .

ويستشهد بمقال يقول ان المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس نشره في « الشهاب » ، ونحن لم نعثر على هذا المقال رغم بحثنا عنه ولكننا عثرنا على ما يخالف ذلك في جريدة « البصائر » للأستاذ رحمه الله... ولنترك « الشهاب » « والبصائر » جانبا ولنبحث المسألة على نور المنطق والعقل .

أما مشكل الثقافة فانه مشكل بحق ، ولكنه إزاء مشكل التزوج بالاجنبيات وإزاء الضرر العنصري والتربوي الذي ينشأ عنه لا يذكر .

فالمرأة الجزائرية مثقفة كانت، ام غير مثقفة هي محسوبة عليك ياسيدي رضيت أم كرهت ، فخيرها خيرك وشرها شرك ؛ وإنك لاتستطيع أن تتبرأ منها ، أو تتخلص من مسؤوليتها مهما حاولت ذلك ، فهي والدتك ، وهي أختك ، وهي قريبتك وهي وهي .. ومشكلة جهلها مشكلة تحتاج الى العلاج ولكن علاجها لا يكون بتركها والتزوج بغيرها ، لأن النتيجة التى يؤدي اليها هذ الترك لا ترضيك

ولا ترتاح لها نفسك وضميرك ... فان نظريتك لا يقرها المنطق ولا العقل باي وجه من الوجوه .

فمسألة الزواج بالاجنبيات ليست بحل لمشكلة جهل المرأة ؛ وما هو الا ضرب من الأنانية وحب الذات ؛ فالمسالة ليست مسالة بضاعة يختار منها الانسان ما يعجبه ويترك ما لا يرضيه ! وإنما هي مسالة أخوات وبنات وقريبات ، من حقهن أن يتزوجن جاهلات كن أم مثقفات .

ثم اي ذنب اقترفنه حتى يكون عقابهن الترك والاهمال ؟ فهل هن المسؤولات عن حالتهن الثقافية ؟ لا . بل أنت وجارك وجميع الرجال الجزائريين هم المسؤولون عن ما تقاسيه المرأة من الجهل والانحطاط .. فعليكم أنتم ان تثقفوها وتجعلوها صالحة للحياة الزوجية السعيدة . فافتحوا لها المدارس وأوجدوا لها وسائل التربية والتعليم ، ثم اسألوها عن تقدمها وتأخرها .

أظن انه ليس من الانصاف فى شيء ان تتركوها جاهلة وتسدوا فى وجهها ابواب التربية والثقافة ، ثم تسالوها عن سبب هذا التأخر وهذا الانحطاط ؟

تقترفون ذنبا ثم تحملونها مسؤولية وتجعلونه عذرا لكم لتركها وإهمالها !... لا يخفى عليك ما في نظريتك من الشذوذ والانحراف عن

جادة الصواب ، بل هو ظلم لا يقره دين ولا عقل ولا منطق .

فما عليك إذن إلا أن تتحمل إبنة عمك على علاتها ، لأنك لاتجد من يتحملها سواك ... ولأنه لا سبيل إلى تركها لأن نتائج هذا الترك عقيمة وخيمة لا ترضيك ولا تطيق الصبر عليها .

وعليك أن تنضم إلى رجال الاصلاح وتسعوا جميعا لعلاج هذا المشكل علاجا واقعيا معقولا ، وذلك بالسعي الحثيث لايجاد وسائل التربية والتعليم لبناتكم حتى تخرجوا جيلا صالحا من النساء لأبنائكم وأحفادكم .

أما نظريتك فانها لا تحتوي على العلاج ، وفيها مصيبة عظمى ، فيها الانحلال العنصري والخلقي .

أما مسألة الادبار عن الزواج الذي فشى كثيرا فسببه إفشاء مثل نظريتك الشاذة بين الشبان من جهة . ثم الجبن والخوف من تحمل مسؤوليات الحياة والعيش ، اما غلاء المهور وتكاليف العادات فانها لا توجد إلا عند بعض الطبقات فحسب ، ويمكن للانسان ان يتحاشاها .

قال الحمار — هذه رسالة ثانية ، متعلقة بما كتبناه سابقا في شأن المرأة الجزائرية جاء فيها : « وإني ارجوكم ان لا تخرجوا من قضية المرأة حتى تبحثوها من جميع وجوهها ؛ كالسفور والداعين اليه

والحجاب والمتشددين فيه ، وغشيان المرأة للاسواق والملاهي في حاجة وفي غير حاجة .

قلت — إنتبه ! ولا تكن حمارا هذه المرة على الأقل .. فان الرجل يريد أن يجرنا الى مشكلة عويصة تعود علينا بالويل .

قال — دعك من هذه الظنون ؛ فساعالج المسألة بما استطيع .

قلت — اسمع كلامي ودعنا من هذا الموضوع الشائك فانه متصل بالدين الرسمي وغير الرسمي ، وأقل هفوة معناه تحطيمنا .

قال — أبدا .. لسنا في حاجة إلى بحث السفور والحجاب من حيث الجواز وعدمه ، وانما سنبحث حالة المرأة الجزائرية ، التي تجتذبها اليوم قوتان متباينتان ، سارت احداهما في طريق الماضي السحيق حتى توغلت فيه ، وسلكت الاخرى سبيل الحاضر المستهتر حتى أنكرت كل شيئ .

فهذا فريق محافظ يريدها أن تبقى سجينة أربعة جدران محرومة من كل شيئ ومن كل نعمة حتى نعمة العلم ؛ وان خرجت لحاجة ضرورية جدا فانما تخرج ملفوفة في سوادها أو بياضها تتعثر في أذيالها لا يعترف لها بحق ولا يعترف لها بمكانة .

وهذا فريق يريدها سافرة ماجنة تغشى الملاهي والأسواق في غير حياء ولا خجل .

والمرأة بين هاتين القوتين تتغلب عليها الأولى تارة فتندفع في حسرة وألم ؛ وتجذبها الثانية تارة أخرى فتندفع في حيرة وخوف .

والويل للمجتمع الجزائري من هذا الفريق الأخير اذا أغرى المراة بطريقته واستطاع ان يدمجها في هذا المجتمع الماجن الحديث وهي لم تتزود — بعد — بالسلاح الكافي من العلم والتربية الصالحة .

قلت — هذا عرض صحيح لحالة المرأة الجزائرية ، ولكن أين العلاج ؟...

قال — العلاج الوحيد هو ان يهتم رجال الاصلاح بالمرأة فيزودونها بالعلم الكافي والتربية المفيدة ويختارون لها طريقة متوسطة تليق بكرامتها كامراة مسلمة ، وتوافق فى نفس الوقت عصرها الذي تعيش فيه .

اما بقاؤهم فى عزلة وسكوت عن هذه المشكلة ليس له اي مبرر ، والمسألة خطيرة لايستهان بها ، ونتيجتها ، عقيمة ، وهي في حاجة ماسة الى ان تتدارك قبل فوات الفرصة ، والفرصة ملائمة فى الوقت الحاضر اما إذا استمروا على هذا الحياد ، فان الطرف المستهتر سيغري المرأة بصواب رأيه وحسن مسلكه وستندفع هي ، لأنها لاتستطيع ان تستمر على حياتها الحاضرة التي هي غير راضية عليها .

والويل للجزائر إذا ما فتكت المرأة الجزائرية بحجابها عن جهل ، فلا تستطيع اية قوة يومئذ ان تعيده إليها ...

الفهـرس

إلى القراء	٣
الاهداء	٥
المقدمة	٧
مع حمار الحكيم	١٢
حمار الحكيم	١٨
الاداب والفنون	٢٣
الادباء والفنانون	٣١
نحن والغرب	٣٨
الزواج	٤٤
فلسفة الحمار	٥٢
مع القارى	٥٧
المجنون	٦٣
احزابنا السياسة	٧٠
الأدب العربي	٧٥
السعادة	٨٢
علم التربية	٨٧
بريد الحمار	٩٢